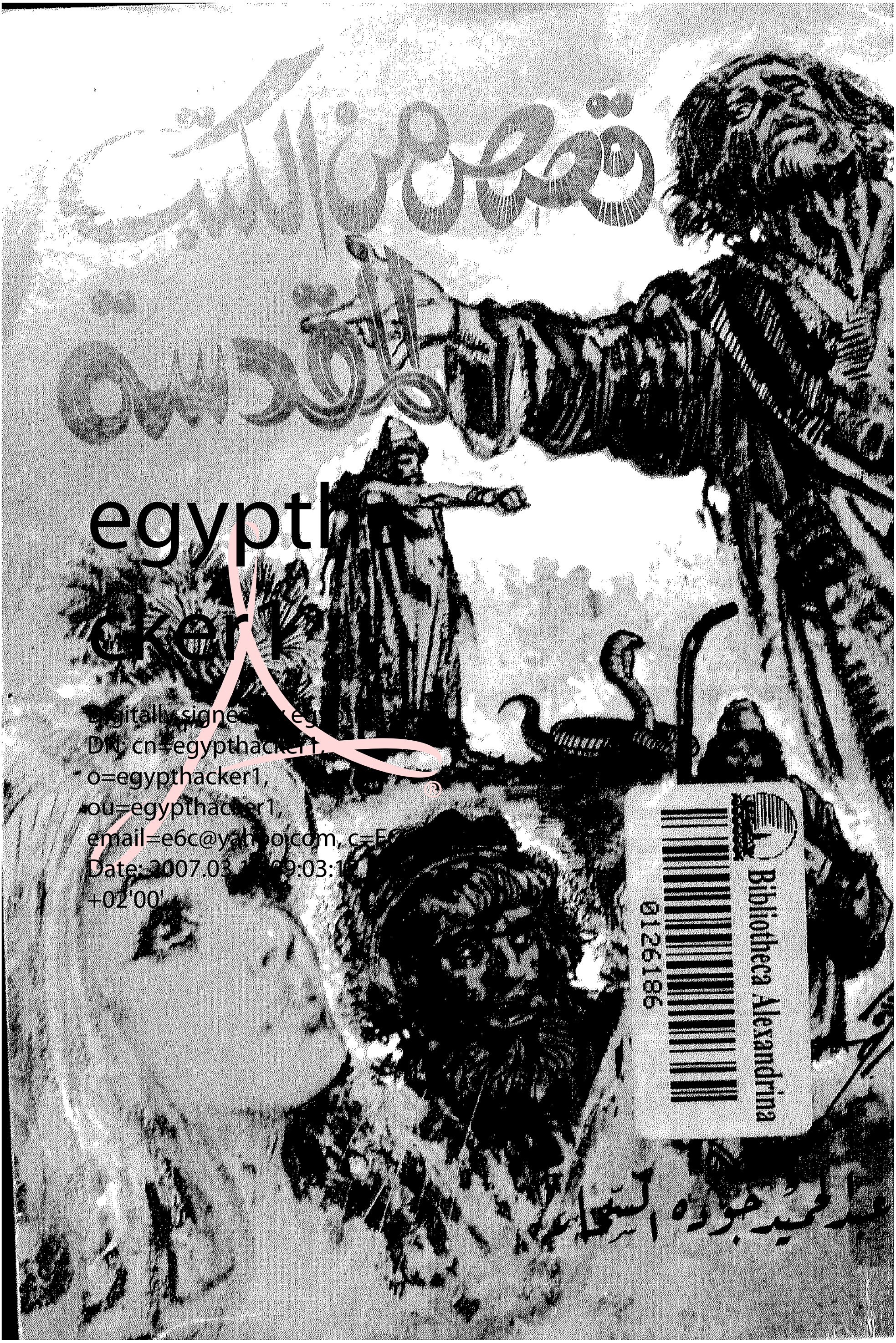
قصص من الكتب المقدسة



عبد الحميد جودة السحار

مطبوعات مكتبة مصر

قصص من الكتب المقدسة

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

خطيئـــة ودم

(فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، انه هو التواب الرحيم) •

« قرآن كريم »

— ١ —

كان كل شيء فضاء ، فلا هواء ولا ماء ، ولا أرض ولا سماء ، ولا ليل ولا نهار ، ولا ظلمة ولا ضياء ، وكان الرحمن ما فوقه هواء ، وما تحته هواء ، وأراد أن يخلق الكون فخلق الريح ، ثم خلق الماء على متن الريح ، ثم خلق عرشه على الماء ، وسما الدخان على الماء فسمى سماء ، واستوى الرحمن الى السماء وهى دخان ، ثم رفع سمكها فسواها ، ثم فتقها ، فجعلها سبع سموات ، ثم خلق الأرض فكانت رتقا ، لا ليل ولا نهار ، ثم خلق الليل فكان الكون ظلاما فى ظلام ، ثم قال للسماء :

ـــ أطلعى شمسى وقمرى ونجومى .

فبزغت الشمس فى رقعة السماء ، وطلع القمر وتلألأت النجوم الألاء ، ثم محا آية الليـــل ، فبقى النور وذهب الضياء ، وجعل آية النهار مبصرة ، وقدر للكواكب منازلها ، فراحت كل تجرى لمستقر لها ، وهجم على الليل النهار ، فبدد ضياؤه الظلام ، ثم دحا الأرض فانبسطت رقعتها ، ثم قال لها شققى أنهارك ، وأخرجى ثمارك .

فتدفقت الأنهار ، وأنبتت الأرض عشبا وبقلا وشجرا ، ثم أرسى الجبال ، ثم خلق الطير والزواحف والدواب ، فراح الطير يرفرف بأجنحته فى السماء ، وأخذت الزواحف تزحف على بطونها ، وجعلت الدواب تدب على الأرض الفضاء .

خلق الله السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسه

من لغوب ، ثم استوى على عرشه تحف به ملائكته تسبح بحمده ، وتقدس له ، وراح الليل يطلب النهار حثيثا ، فغشى الليل النهار ، وباتت الدنيا فى ظلام ، ولما أشرف نور الصبح قال الله لملائكته :

ـ إنى جاعل فى الأرض خليفة .

فقالت الملائكة :

ـ اتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك !

فقال لهم :

ـ إنى أعلم ما لا تعلمون .

وقبض الله قبضة من جميع الأرض ، فكان فيها الأبيض والأسود والأحمر ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن ، ثم بلت القبضة حتى صارت طينا لازبا ، ثم صور الله الانسان ، فكان جسدا من طين ، ثم ترك حتى صار حمأ مسنونا ، وبقى حتى أصبح صلصالا ، فمرت به الملائكة ، ففزعوا منه . وكان ابليس أشدهم فزعا ، فراح يقترب منه ويضربه ، فيصوت الجسد كما يصوت الفخار ، فكان يغمغم !

ـ لأمر ما خلقت !!

وجعل ابليس يطوف به ، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك ، فقال للملائكة فى استخفاف :

ـ لا ترهبوا هذا ، فان ربكم صمد وهذا أجوف ، لئن سلطت عليه لأهلكنه .

فقال الملائكة بعضهم لبعض :

ـ لا يخلق ربنا خلقا الا كنا أعلم منه .

وبقى جسد البشر مدة ، ثم جاء ربك والملائكة صفا صفا ، ثم قال لملائكته :

— إذا نفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين .

فراح ابليس يقيس بين نفسه وذلك الجسد الذى سوى من طين ، فرأى نفسه أشرف منه ، فهو من نار ، وأين الطين من النار ؟ وما درى أن فى الطين الرزانة والحلم والنمو ، وفى النار الطيش والخفة والسرعة والاحراق ، فاستكبر وعزم على الا يسجد مع الساجدين .

ونفخ الله فيه من روحه ، فجعل لا يجرى شىء منها فى جسده الا صار لحما ودما ، وجرت الروح أول ما جرت فى بصره ، فراح ينظر الى جسده ، فأعجبه ما رأى من حسنه ، فذهب لينهض فلم يقدر ، فلما سرت الروح فى بقية جسده ، انتصب واقفا ، وسمى آدم ، لأنه من أديم الأرض خلق .

وسجد الملائكة لآدم الا ابليس ، أبى واستكبر وكان من الكافرين فقال الله له :

— ما منعك أن تسجد اذ أمرتك .

قال :

— أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين .

قال :

— فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج انك من الصاغرين .

قال :

ـ أنظرنى الى يوم يبعثون .

قال :

ـ انك من المنظرين .

قال : فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين .

قال : اخرج منها مذموما مدحورا ، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين (*)

وخرج ابليس منها ذليلا ، وقال الله لآدم :

ـ إيت أولئك الملأ من الملائكة ، فقل لهم : السلام عليكم .

فقالوا له : وعليك السلام ورحمة الله .

ورجع آدم الى ربه عز وجل ، فقال الله له :

ـ هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم ..

ـ ٣ ـ

وشاء ربك أن يرى الملائكة أنهم ما كانوا صادقين لما قالوا : لا يخلق ربنا خلقا الا كنا أعلم منه ، فجلب من الأرض حيوانات البرية ، وطيور السماء ، ثم عرضها على الملائكة ، فقال :

ـ انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين .

قالوا : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أنت العليم الحكيم .

قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم .

فجعل آدم يذكر اسم كل طير ، وكل زاحفة ، وكل دابة ، فقال الله سبحانه :

ـــ ألم أقل لكم ، إنى أعلم غيب السموات والأرض ، واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .

وأسكن آدم الجنة ، فراح يضرب فيها وحيدا ، ثم وفد عليه النوم ، فراح فى سبات عميق . وشاء الله أن يخلق له زوجة له يسكن اليها ، فأخذ ضلعا من أضلاعه من شقه الأيسر ، والأم مكانها لحما ، وآدم نائم لم يهب من نومته ، وخلق الله من ضلعه امرأة ، وجلست المرأة عند رأسه تتطلع اليه ، فلما هب آدم من نومه ، رأى عند رأسه مخلوقة حلوة ، تديم النظر اليه ، فرمقها فى عجب ، وأحس نحوها عطفا وانجذابا ، فسألها فى دهش :

ـــ ما أنت ؟

ـــ امرأة !

ـــ ولم خلقت ؟

ـــ لتسكن إلى !

وراح ينظر اليها من رأسها الى قدمها فى غبطة ونشوة ، وأقبلت الملائكة عليهما ، وشاءوا أن يروا مبلغ علمه ، فسألوه :

ـــ ما اسمها يا آدم ؟

ـــ حواء .

ـــ ولم سميت حواء ؟

ـــ لأنها خلقت من شيء حى .

وجعل ابليس يجول خارج الجنة ، لا يجرؤ على الدنو منها ، فقال الله لآدم :

ـــ يا آدم ، ان هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من

الجنة فتشقى ، إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ، وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى .

وجعل آدم ينظر الى حواء وقد أحس غبطة ، فلم يعد يمشى فى الجنة وحشا ليس له من يؤنسه ، فقد أنعم الله عليه زوجة ، بعض لحمه ودمه ، وراحا يسيران عريانين ، لا يخجلان ، فما كانا يعرفان خيرا ولا شرا ، وقال الله لآدم :

— يا آدم ، اسكن أنت وزوجك الجنة . وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين .

ونظرت حواء الى الشجرة التى حرمها الله عليها ، فاذا هى بهجة للعيون ، وفتنة للناظرين ، ثم تحولت عنها ، وراحت وآدم يأكلان من ثمار الأشجار الأخرى ، وعاشا فى رغد من العيش ، وسعادة وهناءة .

— ٤ —

طرد ابليس من الجنة ، فعزم على أن يوسوس لآدم وحواء ، وأن يزين لهما معصية الله ، فيخرجهما من الجنة ، وحاول أن ينفلت الى الجنة غير مرة ، لينفذ أمنيته ، ولكن خزنة الجنة كانوا يردونه فى كل مرة ، فلم ييأس ، وفكر فى أن يعرض نفسه على دواب الأرض أيها تحمله حتى يدخل الجنة ، فيكلم آدم وزوجه ، فانطلق وعرض نفسه على الدواب ، فأبت الدواب جميعا ذلك عليه ، فذهب الى الحية ، وكانت كاسية من أجمل الدواب ، تمشى على أربع قوائم ، فكلمها فقال لها :

ـــ أمنعك من بنى آدم ، فأنت فى ذمتى ان أنت أدخلتنى الجنة .
فقبلت الحية ما عرض عليها ، فجعلته بين نابين من أنيابها ، ثم دخلت به الجنة ولم يفطن الخزنة الى ذلك . فلما اطمأن ابليس الى انه أصبح فى الجنة ، خرج من الحية ، وأسرع الى آدم ، وراح يوسوس له :
ـــ يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟
فأعرض آدم عنه ، ولكن ابليس استمر فى وسوسته :
ـــ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين .
فلم يصغ آدم اليه ، وفر منه ، فأسرع ابليس خلفه ، وأخذ يقسم :
ـــ والله انى لكما من الناصحين .
فوضع آدم أصبعه فى أذنه ، وأشاح بوجهه عنه ، فارتد ابليس عنه وهو حسير ، وأيقن أنه ليس على اغراء آدم بقدير ، ولكن ما لبث أن رأى حواء تتطلع الى الشجرة المحرمة ، فأسرع اليها وقال لها :
ـــ انظرى الى هذه الشجرة ما أطيب ريحها ، وأطيب طعمها ، وأحسن لونها .
فتطلعت حواء اليها فى اشتياق واشتهاء ، ثم مدت يدها اليها وتناولت منها ، وأكلت وأساغت ما أكلت ، فالتفتت الى آدم وقالت :
ـــ يا آدم كل فانى قد أكلت !
ـــ لا ......
ـــ كل ، لقد أكلت ولم تضرنى .
ـــ لا ....

فتركته حواء وقد زوت ما بين حاجبيها ، وانتبذت مكانا قصيا ، وأحس آدم رغبة الى حواء ، فدعاها لحاجته ، فقالت :

ـــ لا ! الا أن تأتى ها هنا !

فقام آدم ، وسار الى حيث كانت حواء ، وطوقها بذراعيه ، فأشاحت بوجهها عنه ، وأظهرت دلالا ، فلم يستطع آدم أن يصبر على دلالها ، فمد يده الى وجهها النافر ، وأداره لتتلاقى عيناه بعينيها ، لعلها ترى ما فى عينيه من حب ، فلما التقت العيون قالت فى اغراء :

ـــ لا ! الا أن تأكل من هذه الشجرة .

فانهارت مقاومة آدم جميعا ، وقام الى الشجرة يتناول منها ويأكل ، فعرف كل شىء ، عرف أنه عريان ، كما عرفت حواء أنها عريانة ، فبدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وأقبل الرحمن ، فلما رآه آدم ، ذهب هاربا فى الجنة . ناداه ربه :

ـــ يا آدم ، أمنى تفر ؟

ـــ لا يارب ، ولكن حياء منك .

ـــ ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين ؟ ! لم أكلتها وقد نهيتك عنها ؟

فقال آدم :

ـــ يا رب ، أطعمتنى حواء .

فقال لحواء :

ـــ أنت التى غررت عبدى ، فانك لا تحملين حملا إلا حملته كرها ، فاذا أردت أن تضعى ما فى بطنك أشرفت على المـــوت مرارا .

وقال للحية :

ـــ أنت التى دخل الملعون فى بطنك حتى غر عبدى ، ملعونة أنت حتى تتحول قوائمك فى بطنك ، ولا يكن لك رزق الا التراب ، أنت عدو بنى آدم وهم أعداؤك ، حيث لقيت أحدا منهم أخذت بعقبه ، وحيث لقيك شدخ رأسك .

فقال آدم وحواء فى استغفار :

ـــ ربنا ظلمنا أنفسنا ، وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين .

فقال الله لآدم :

ـــ أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحة عما حرمت عليك ؟

فقال آدم فى انكسار :

ـــ بلى يا رب ، ولكن وعزتك ما حسبت أن أحدا يحلف بك كاذبا .

فقال الله :

ـــ فبعزتى لأهبطنك الى الأرض ، فلا تنال العيش الا كدا !

فقال آدم فى ذلة وتضرع :

ـــ رب غفرانك ، رب غفرانك !

فقال الله :

ـــ اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين .

— ٥ —

وهبط آدم الى الأرض ، وعلى رأسه أكليل من شجر الجنة ، والقى نفسه على قمة جبل فى الهند وحيدا ، فراح يتلفت الى اليمين والى الشمال ، ويدور على عقبيه ، ويمد بصره الى الأفق البعيد ، فلا يجد الا الأرض والسماء ، فيحس رهبة ، لقد كان بجوار الرحمن آمنا هانئا ، فصار طريدا هائما على وجهه ، لا يدرى ما يفعل فى هذا الكون العريض ، كانت حواء الى جواره فى جنة النعيم ، تقاسمه هناءه ، فما باله لا يجدها اليوم معه فى دنيا الشقاء تقاسمه شقاءه ، لقد كانت سبب نكبته وأس بلائه ، ولكنه ما كان يحس نحوها حقدا أو بغضا ، بل كان يحن اليها ، وكانت أمنيته الأولى على وجه الأرض أن يتلاقى وزوجه .

وهبط آدم من على الجبل حتى بلغ سفحه ، وجعل يتلفت باحثا منقبا عن حواء ، ولكنه لم يجد لها من أثر ، فانقبض صدره ، وسالت عبراته ، وجعل يبكى على الفردوس المفقود .

وهبطت حواء بجدة من أرض مكة ، فألفت نفسها وحيدة فى ذلك الفضاء العريض ، فجزعت ، وراحت الرياح تولول وتصفر ، فازداد فزعها وجزعها ، وسقط الليل فراحت حواء تتلفت فى جزع واضطراب لعلها تجد لآدم أثرا ، أو لعل آدم يفد عليها فينقذها مما هى فيه من عذاب ، ولكن انقضى شطر الليل ولم يظهر آدم ، فجعلت تبكى حتى كاد قلبها ينصدع من البكاء .

وتصرم الليل وآدم نائم عند سفح الجبل ، وابتدأت الشمس تبزغ ، فهب من نومه يستقبل أول نهار يفد وهو على الأرض ،

ويرقب الشمس التى رأحت تطل على الكون ، وييبس الاكليل الذى كان على رأسه فتحاتٌ ورقه ، وسقطت الأوراق على الأرض فنبتت طيبا فى أرض الهند . وجعل آدم يضرب فى الفضاء ، وينظر الى سعة الأرض وبسطتها فلم ير فيها أحـــدا غيره ، فاستوحش وقال :

ـــ يارب ، أما الأرضك هذه عامر يسبح بحمدك ويقدس لك غـــيرى ؟

فسمع صوت الله يقول :

ـــ انى سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدى ويقدسنى ، وسأجعل فيها بيوتا ترفع لذكرى ، ويسبح فيها خلقى ، ويذكر فيها اسمى ، وسأجعل من تلك البيوت بيتا أخصه بكرامتى ، وأوثره باسمى وأسميه بيتى ، أجعله حرما آمنا يحرم بحرمته من حوله ومن تحته ومن فوقه ، فمن حرمه بحرمتى استوجب بذلك كرامتى ، ومن أخاف أهله فيه ، فقد أخفر ذمتى ، وأباح حرمتى . اجعله أول بيت وضع للناس ببطن مكة مباركا ، يأتونه شعثا غبرا على كل ضامر من كل فج عميق ، يرجون بالتلبية رجيجا ، ويثجون بالبكاء ثجيجا ، ويعجون بالتكبير عجيجا ، فمن اعتمره ولا يريد غيره ، فقد وفد إلى وزارنى وضافنى ، وحق على الكريم أن يكرم وفده وضيفه ، تعمره يا آدم ما كنت حيا ، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة ، وقرنا بعد قرن .

وأحس آدم حنينا الى بيت الله هذا الذى بمكة ، وأوحى اليه أن ينطلق الى البيت الحرام الذى أهبط له الى الأرض ، فيطوف به كما كان يرى الملائكة تطوف حول عرش الله .

وراح آدم يطـــوى الأرض طيا ، حتى اذا بلغ مكة لمـــح امرأة على البعد تغذ السير ، فخفـــق قلبـــه ، واضــــطرب

نفسه ، فأسرع نحوها وقلبه فى صـــدره كجناح خافق ، يكاد يقفز من فيه من شدة الفرح ، انها هى ، حواء نفسها ، الزوجة وحبيبة الفؤاد . ولما رأته حواء ، ارتمت فى أحضانه تبكى وتنتحب فضمها الى صدره فى وله واشتياق .

لقد التقيا وتعارفا بمكة ، فسمى مكان تعارفهما عرفات .

- ٦ -

وانطلق آدم وحواء الى بيت الله ، واذا هـو ياقـوتة واحدة ، فراحا يطوفان ، ولما أتما مناسـك الحـج ، عادا الى الهند ، فاتخذا مغارة يأويان اليها فى الليل والنهار ، وأحس آدم شيئا يعض أمعاءه ، وشعر بضعف وخور ، فلما جاءه جبرائيل وصف له ما يحس ، فقال جبرائيل له :

ـ انه الجوع !

فقال آدم فى عجب :

ـ الجوع ! وما أفعل ؟

فأجابه جبرائيل :

ـ استطعم ربك .

وذكـر آدم ما كان فيه من نعيم ، فبـكى وبكت حـواء ، ورفع آدم وجهه الى السماء وجعـل يدعو الله أن يطعمه ، وأخـذ بطنه يصرخ به ، فأخـذ فى الابتهـال والدعاء ، فبعثه الله اليه مع جبرائيل بسبع حبـات من حنطة ، فوضـعها فى

يد آدم ، فنظر اليها آدم ، ثم رفع عينيه الى الملك واستفسر :

ـــ ما هذا ؟

ـــ هذا الذى أخرجك من الجنة .

ـــ وما أصنع بهذا ؟ آكله ؟

ـــ انثره فى الأض .

فنثره آدم فأنبته الله من ساعته ، فنظر آدم الى الحنطة ، ثم قال :

ـــ آكله ؟

فقال له جبرائيل :

ـــ احصده .

فقال :

ـــ أحصده ؟ كيف ؟

فأراه جبرائيل كيف يحصده ، فراح آدم يعمل ، فلما انتهى من حصده جمعه ثم سكت ، وتطلع الى جبرائيل ، فقال هذا له :

ـــ أفركه .

فقال :

ـــ أفركه ؟ وكيف أفركه ؟

فقال جبرائيل :

ـــ أفركه بيديك .

فأخذ آدم يفركه بيديه ، وجعل العرق يتفصد منه ، ولما انتهى قال لجبرائيل فى لهفة :

ـــ آكله ؟

ـــ أذره .

ـــ وكيف أذروه ؟

فأراه جبرائيل كيف يذروه ، فجعل آدم يعمل وقد أحس تعبا ، ولكنه استمر فى عمله ، فان الجوع يعضه وان صراخه لينبعث من جوفه ، وانه ليود أن يسكت ذلك الصراخ الأليم وان كد وتعب ، ولما انتهى من تذريته تنفس الصعداء ، فقد حسب أن تعبه قد انتهى ، وان جبرائيل سيأمره بتناول طعامه ، ولكن جبرائيل قال له :

— اطحنه .

فقال آدم فى تبرم :

— وبم أطحنه ؟

فأتاه جبرائيل بحجرين ، فوضع أحدهما على الآخر وقال :

— بهذه .

فطفق آدم يطحن الحبات بين شقى الرحى ، وقد سال عرقه ، وبان عليه الكلال .. وتم الطحن ، وقبل أن يلتقط انفاسه المبهورة ، قال له جبرائيل :

— اعجنه .

فقال آدم فى صوت خفيض ذليل :

— وكيف أعجنه ؟

فأمره أن يجلب ماء ، وأن يضع الدقيق فى وعاء ، وان ـب الماء عليه ، ثم أراه كيف يعجنه ، فأخذ آدم يعجن ، ولما نهى رفع رأسه وراح ينظر الى جبرائيل ، فقال له جبرائيل :

— أخبزه .

— وكيف أخبزه ؟

— أوقد نارا .

— وكيف أوقد نارا ؟

— اجمع بعض الأغصان اليابسة .

فجمع آدم بعض أغصان يبست ، وجمع جبرائيل له الحجر والحديد فقدحه ، فخرجت منه النار ، فاشتعلت الأغصان ، فمد آدم يده وقبض على النار فصرخ ، فقد احترقت يده ، ونظر الى جبرائيل فقال هذا :

ــ لقد أحرقتك النار لأنك عصيت الله .

وأخذ آدم يخبز خبزه ، فلما انتهى قال له جبرائيل :

ــ الآن كل يا آدم !

وارتفع جبرائيل ، وابتدأ آدم وحواء يأكلان ، ولما انتهيا سكت صراخ البطن وابتدأ صراخ الفكر ، فراحت الأفكار تتوافد على رأس آدم فتذكر فيما تذكر قول الله له :

ــ يا آدم ان هـذا عـدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ، وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى .

فانهمر الدمع من مقلتيه ، فقد انتهت أيام الجنة سراعا ، أيام الهناءة والسعادة ، وأقبلت أيام الدنيا القاسية ، أيام الصخب والتعب والنصب والشقاء .

وحملت حواء ، فقاست ما تقاسيه النساء فى الحمل ، ثم جاءها المخاض ، فأشرفت على الموت مرارا قبل أن تضع ما فى بطنها ، ثم وضعت توءما ذكرا وأنثى ، وسمى الذكر قابيل ، والأنثى كليما ، ونشأ قابيل وكليما معا ، وكانت كليما تنمو حلوة جذابة جميلة ، ومرت أيام تتلوها أيام ثم شهور تجد فى أثرها شهور ، فوضعت حواء توءما آخر ذكرا وأنثى ، وكان الذكر هابيل والأنثى لبودا .

وشب الأخوة الأربعة معا ، وكانت كلما مرت السنون تفتحت كليما وازدادت جاذبية وحسنا ، فكانت أجمل من لبودا ، وأكثر فتنة وسحرا ، فتعلق بها قابيل وتدله بها حبا .

واشتد ساعد قابيل وهابيل ، فخرج قابيل لبذر الأرض . فقد كان على بذرها ، وخرج هابيل ليرعى ماشيته ، كان على رعى الماشية ، وجعل كل يعمل عمله حتى اذا ما غابت الشمس عن الكون عاد كل منهما الى الكهف ليشارك الأسرة طعامها .

وجلس حول الطعام آدم وحواء وأبناؤهما وكانت كليما باهرة الحسن ، حلوة الملامح ، فجعل كل من قابيل وهابيل يسترق النظر اليها ، وفطن آدم الى نظراتهما فعزم على أن يزوج أبناءه ، وقد كانت شريعته أن يتزوج الرجل أى أخواته شاء الا توءمته التى ولدت معه ، فقال :

ـــ آن أوان زواج قابيل وهابيل ، فليتزوج قابيل من لبودا ، وليتزوج هابيل من كليما .

فبدت الغبطة فى وجه هابيل ، وامتعض قابيـــل ، وبان الغضب فى وجهه ، انه ليضن بأخته على أخيه ، فلم يكتم سورة غضبه بل انفجر صائحا :

ـــ أنا أحق بأختى .

فقال آدم ليهدىء من ثورة ابنه :

ـــ يابنى ! انها لا تحل لك .

فقال قابيل فى اصرار :

ـــ انها تحل لى ، انها أختى ، وأنا أحق بأختى من هابيل .

ونظر قابيل الى كليما ، فبدت له أجمل وأحلى مما كان يراها ، فعقد العزم على التشبث بها وعدم تركها لهابيل ، فأخذ يردد :

ـــ انها لى ، لى أنا ، لن أتزوج الا كليما ، وليتزوج هابيل من لبودا .

فبان على آدم التردد ، وأخذ يتطلع الى قابيل وهابيل ، انه ليحس نحوهما عطفا وحبا ، انه لا يستطيع أن يرغم قابيل على تزويج أخته التى يهواها ويحبها من هابيل ، فالتفت الى قابيل وقال :

ـــ يا بنى ! فقرب قربانا ويقرب أخوك هابيل قربانا ، فأيكما قبل الله قربانه فهو أحق بها .

وخرج آدم ليأتى مكة ليطـــوف ببيت الله ، وتأهب قابيل وهابيل ليقربا قربانا ، فقرب هابيل أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها ، طيبة بها نفسه ، وقرب قابيل شر حرثه ، الكوذر والزوان غير

طيبة بها نفسه ، وكان الرجل اذا قرب قربانا فرضيه الله عز وجل أرسل اليه نارا فأكلته ، فأخذ قابيل وهابيل ينتظران قضاء الله فى قربانهما .

ومرت سويعات وهما ينتظران قضاء الله فى اضطراب وقلق وخوف ، وكان هابيل أكثر اطمئنانا ، وأعمر قلبا ، فقد كان صاحب حق ، فان الشريعة لتقضى بزواجه من كليما ، وكان قابيل باغيا ظالما ، لا يحب الا نفسه ، ولا يهمه من سواها ، فجعل ينتظر قضاء الله وقد بيت فى نفسه أن لا يخضع لهذا القضاء ما لم يكن فى جانبه .

وانقضت نار بيضاء من السماء كسهم انطلق من قوسه ، فأكلت قربان هابيل ، وتركت قربان قابيل ، فشكر هابيل ربه ، وضاق قابيل بالغيظ صدره ، وأحس دماءه تجرى بالمقت والحقد ، وأعمى الغضب بصيرته ، وجاءه الشيطان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، وراح يوسوس له أن أقتل أخاك قبل أن يستحوذ على كليما ، ورأى بعين خياله لبودا القبيحة الى جواره ، فثارت ثائرته ولم يستطع أن يكبت ما وسوس الشيطان به فى صدره ، فنظر الى أخيه نظرة مقت وحقد وغضب وقال :

ـــ لأقتلنك !

فقال هابيل فى اطمئنان ، وكان أشد من أخيه وأقوى :

ـــ انما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك ، انى أخاف الله رب العالمين . انى أريد أن تبوء باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين .

وأدار هابيل ظهره لأخيه وانصرف ، وراح قابيل يفكر فى أن ينقض على هابيل ويقتله ، ولكنه ثبت فى مكانه لا يريم حتى اختفى هابيل عن عينيه .

سار قابيل مطأطىء الرأس ، باسر الوجه ، منقبض الصدر ، يعض على نواجذه غيظا ، يلتقط نفسه المكروب فى جهد ، فكأنما كانت يد قوية تضغط رقبته ضغطا ، وجعلت الأفكار الخبيثة تتوافد على مخيلته توافد الموج ، فاذا ما تكسرت فكرة ، وفدت فكرة أعظم شرا وأشد خبثا .

وبلغ قابيل الكهف ، ورأى كليما فأحس خزيا ، فان الله لم يتقبل قربانه ، وقضى بزواجها من هابيل ، وتمدد لينام ، وكان المكان حالك الظلام . فأخذت الأفكار تنمو ، وراحت تتجسم فى مخيلته . فتعذبه وتضنيه : ان هابيل سيهنأ بكليما الجميلة الفتانة الجذابة ، أما هو فيشقى بلبودا البغيضة القبيحة ، انه ليحس أنه بأخته أولى ، لقد اتفقت السماء والأرض على تعذيبه ، فلن يخضع لمشيئة الأرض ، ولن يأبه لحكم السماء ، ولن يترك كليما لهابيل أبدا ، وليكن ما يكون .

واستمر فى قلقه وأرقه ، يصغى الى شيطانه ، وشيطانه يلعب به ويمنيه ، وانقضى الليل وما انقضى عذابه فعزم على أن يضع لهذا الضنا حدا .

خرج هابيل كما اعتاد أن يخرج كل يوم ، وراح يرعى ماشيته ، واقبل قابيل محطم النفس يحس كأنما عقدت فى صدره عقدة من الحقد والمقت ، ولمح أخاه فى ماشيته فلم ير فيه الا سالب سعادته وهنائه ، فحمل صخرة واقترب من أخيه ثم ضربه بها ، فسقط هابيل مجدلا ، وسال أول دم على الأرض ،

وتعففت الأرض فلم تمتصه بل تركته ، انها لتترفع عن أن تشـارك الانسان جرمه وبغيه وطغيانه .

ونظر قابيل الى أخيه الذى انكفأ على وجهه فاقد الحراك ، وقد انقشع المقت عن صدره ، فقد شفى غليله ، فما درى مايفعل بذلك الجسد الفانى ، وانقضت ساعات وقابيل أمام أخيه المجدل حائر . وأقبل غرابان ، وراحا يقتتلان ، فجعل قابيل يرقبهما فقتل أحدهما الآخر ، فلما سقط المقتول على الأرض لم يتركه القاتل فى الفضاء ، بل عمد الى الأرض ، وراح يحفر له فيها ، ثم جـــذب المقتول ووضعه فى الحفرة ، وواره بالتراب ، فلما رأى قابيل ذلك غمغم :

ــ يا ويلتى ! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى ؟ .

ثم نهض وطفق يحفر لأخيه ، ثم واراه فى قبره .

وعاد آدم من مكة ، وانطلق الى كهفه ، فلما رآه قابيـــل قادما أحس وجلا . فأخذ بيد أخته كليما وفر من وجهه ، فأسرع آدم الى الكهف ، فعلم بمقتل هابيل ، فأحس حزنا يقطع نياط قلبه ، والدمع يسبح من مقلتيه ، فهرول فى غضب خلف قابيل ، فرآه هابطا من الجبل آخذا بيد أخته ، فصاح به فى حنق :

ــ اذهب ، فلا تزال مرعوبا لا تأمن من تراه .

ابن الذبيحين

« وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه من نسلك » .

(التوراة)

« مالك يا هاجر ، لا تخافى الأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو ، قومى احملى الغلام وشدى يدك به ، لأنى سأجعله أمة عظيمة »

(التوراة)

— ١ —

خرج ابراهيم من المعبد وهو شارد اللب ، فقومه عاكفون على عبادة التماثيل ، وان عقله لينفر من تلك الآلهة التى لا تسمع اذا دعوها ، ولا تنفع ولا تضر ، وظل يفكر ويقلب وجهه فى السموات والأرض ، فلما جن عليه الليل رأي كوكبا ، قال :

— هذا ربى .

فلما أفل قال :

— لا أحب الآفلين .

وجعل يقلب وجهه فى السماء ، فلما رأى القمر بازغا قال :

— هذا ربى .

فلما أفل قال :

ــ ان لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين .

وعاد الى أهله ، وهو فى حيرة من أمره ، وانقضى الليل ، وجاء النهار ، فخرج ، فلما رأى الشمس بازغة قال :

ــ هذا ربى ، هذا أكبر .

فلما أفلت قال :

ــ يا قوم انى برىء مما تشركون .

واهتدى الى من فطر السموات والأرض ، فامتلأ قلبه ايمانا ، ونزلت به سكينة ، وانطلق الى المعبد فألفى أباه وقومه يعبدون التماثيل ، فقال لهم :

ــ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟

قالوا :

ــ وجدنا آباءنا لها عابدين .

قال :

ــ لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .

قالوا :

ــ أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟

قال :

ــ بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وانا على ذلكم من الشاهدين .

ــ بل هذه الأصنام آلهتنا يا ابراهيم .

ــ هل يسمعونكم اذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ؟

ــ هذه آلهتنا يا ابراهيم ، نظل لها عاكفين .

ــ فانهم عدو لى الا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، واذا مرضت فهو

يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين .

— سنعبدها وسنظل على عبادتها ، أننا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون .

— تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين .

— ٢ —

جاء يوم العيد ، وتأهبوا للخروج الى ظاهر البلد ، وجاء الى ابراهيم أبوه ، وسأله أن يخرج معهم ، فنظــر نظرة فى النجوم ، فقال :

— انى سقيم .

وخرج الناس وبقى ابراهيم ، حتى اذا غابوا عن عينيه ذهب الى المعبد مسرعا مستخفيا ، وانطلق فى البهو العظيم ، فألفى الأصنام وبين أيديها ألوان من الأطعمة قدمها الناس قربانا اليها ، فقال لها متهكما :

— ألا تأكلون ؟ مالكم لا تنطقون ؟

فراغ عليهم ضربا باليمين ، فكسرها بقدوم فى يده ، فجعلها حطاما ، الا كبيرا لهم ، لعلهم اليه يرجعون ، وذهب الى الكبير ، ووضع فى يده القدوم .

ورجع الناس من عيدهم ، وانطلقوا الى المعبد ، فراعهم ما حل بآلهتم ، قالوا :

— من فعل هذا بآلهتنا ، انه لمن الظالمين .

قال بعضهم :

ـــ سمعنا فتى يذكرهم ، يقال له ابراهيم .

ـــ فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون .

وجاء ابراهيم ، وحشر الناس فى المعبد ، قالوا :

ـــ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ؟

قال :

ـــ بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم ان كانوا ينطقون .

فأدركت القوم حيرة ، فأطرقوا ثم قالوا :

ـــ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون .

ـــ أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ، ولا يضركم ؟ أف لكم ولما تعبدون من دون الله ! أفلا تعقلون ؟

فأقبلوا اليه يسرعون ، قال :

ـــ أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون .

فغلبوا ، فعدلوا عن المناظرة ، وأرادوا أن يستروا هزيمتهم فلجئوا الى القوة ، قالوا :

ـــ ابنوا له بنيانا ، فألقوه فى الجحيم .

وصاح صائح :

ـــ حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين ..

فشرعوا يجمعون حطبا ، ثم عمدوا الى جوبة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب ، وأطلقوا فيه النار ، فاضطرمت وتأججت ، واندلع لهيبهـــا يتراقص كأنه ألسنة الشياطين، ثم وضعوا ابراهيم فى منجنيق وأطلقوه ، فانطلق حتى وقع فى النار وهـــو يقول :

ـــ اللهم انك فى السماء واحد ، وأنا فى الأرض واحد أعبدك .

قال الله :

— يا نار ، كونى بردا وسلاما على ابراهيم .

ووقف الناس ينظرون ، وقد علاهم الدهش ، لانهم وجدوه والنار حوله لا تصيب منه شيئا ، ونظر أبوه ، فلما رأى ابنه فى النار لا تؤذيه ، قال :

— نعم الرب ربك يا ابراهيم .

— ٣ —

وبلغ الملك أن النار كانت بردا وسلاما على ابراهيم ، فلم يصدق ما بلغه ، فخرج فى رجاله الى حيث كانت النار تتأجج شررها يتطاير ، وأحس حرارتها تلفح وجهه ، فمد بصره ، فرأى ابراهيم يتصبب عرقه ولم يحرق منه سوى وثاقه ، فأحس قهرا ، وزاد فى قهره أن رأى الناس يتهامسون ، فخشى أن يفتنهم ذلك الشاب الذى جاء يدعوهم الى اله غيره ، فقد كان يدعى أنه ربهم العظيم .

وأمر الملك الناس أن يخرجوه ، فدنا بعضهم من النار ، فشعروا بلفحها يكاد يشويهم ، فوقفوا بعيدا لا يقدرون على الوصول اليه ، وارتفعت هتافاتهم تدعوه أن يخرج اليهم .

وخرج ابراهيم من النار لم يمسه شىء من حرها ، فانطلقت اليه أمه تعتنقه فى حب ، وتقبله فى حنان ، وهى تبكى لا يرقأ لها دمع ، وذهب اليه أبوه وقد انبثقت فى جوفه مشاعر الأبوة الرقيقة الحانية .

وجىء به الى الملك ، فقال له فى كبرياء :

ـــ من ربك هذا الذى تدعو اليه ؟

قال ابراهيم :

ـــ ربى الذى يحيى ويميت .

فقال الملك فى استخفاف :

ـــ أنا أحيى وأميت .

ـــ لا تستطيع .

ـــ سترى .

وجاء الملك برجلين حكم عليهما بالموت ، وقال :

ـــ أقتل هذا وأعفو عن هذا .

فقال ابراهيم :

ـــ هذا تشغيب .

فقال الملك مكابرا :

ـــ ألا ترى يا ابراهيم اننى أحيى وأميت !

وتطلق وجه الملك ، وابتسم الناس ابتغاء مرضاته ، وقال ابراهيم :

ـــ فان الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب .

فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين .

ـــ ٤ ـــ

هجر ابراهيم قومه فى الله ، وهاجر من بين أظهرهم ، وخرجت معه امرأته سارة ، وابن أخيه لوط ، فقد آمن به ، حتى اذا بلغوا الشام ، أوحى الله اليه :

ـــ انى جاعل هذه الأرض لخلفك بعدك .

فابتنى ابراهيم مذبحا لله شكرا على هذه النعمة ، وضرب قبة ، وعاش يعبد ربه ، ونزل بالبلاد قحط وشدة وغلاء ، فحمل ابراهيم سارة وارتحل الى مصر ، ونزل بالقرب من قصر فرعون .

ورأى غلمان فرعون سارة ، وكانت ذات جمال ساحر ، فذهبوا اليه ، وقالوا له :

ـــ نزل هنا رجل معه امرأة من أحسن النساء .

فأرسل اليه ، فدخل ابراهيم على فرعون وهو خائف ، فقال له :

ـــ من هذه معك ؟

ـــ أختى .

ـــ فأرسل بها إلى .

فرجع ابراهيم الى سارة وهو حزين ، فقالت له :

ـــ ماذا قال لك ؟

ـــ سألنى عنك ، فقلت انك أختى ، وانه ليس اليوم مسلم غيرى وغيرك وأنك أختى ، فلا تكذبينى عنده .

وذهبت سارة الى القصر وهى تدعو الله :

ـــ اللهم ان كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك ، وأحصنت فرجى الا على زوجى ، فلا تسلط على الكافر .

ودخلت عليه ، فالتمعت عيناه سرورا ، فقد كان جمالها آسرا ، وحسنها باهرا ، ودنا منها ، وأراد أن يمد يده اليها ، فأحس كأنما شلت يده ، فارتاع ، فقالت له سارة :

ـــ هذا من فعل ربى ...

ـــ ادعى الله لى ولا أضرك .

فدعت له ، فعادت يده كما كانت ، فمدها اليها فشلت ، فقال لها :

ـ أدعى الله ولا أضرك .

فدعت له ، فعادت يده كما كانت ، فراح يمـدها اليهـا فشلت .

فقال لها فى توسل :

ـ هذا حق ، هذا من عنـد ربك ، ادعى الله لى ولن أضرك .

فدعت له ، فلما أرسل ، نادى أدنى حشمة فقال :

ـ ما أرسلتم الى الا شيطانا ، أرجعوها الى ابراهيم ، وأعطوها هاجر .

ورجعت سارة الى زوجها وخلفها هاجر ، فلما دنت من خيمته ألفته يصلى ، فلما أحس بها انصرف ، وأقبل عليها يسألها عما حدث ؟ فقالت :

ـ كفى الله كيد الظالم ، وأخدمنى هاجر .

ـ ٥ ـ

خـرج ابراهيم وسـارة من مصر ، وفى رفقتهما هاجر المصرية ، ونزلوا برية الشام . وتوالت السـنون ، وراحت سارة تتطـلع الى هاجر ، فالفت ماء الشـباب يترقـرق فى وجهها . ونبتت فى ذهنها فكرة ، ان زوجها دعا ربه أن يهب له ذرية من الصالحين ، وهى عجوز عقـيم ، وزوجها شيخ

كبير ، فلماذا لا تهب له هذه الجارية يتزوجها ، فيرزقه الله الذرية الصالحة !

ودخلت على ابراهيم وقالت :

— انى وهبت لك هاجر .

فنظر اليها وفى عينيه سؤال ، وقالت :

— انى أراها امرأة وضيئة فلعل الله يرزقك منها ولدا نقر به عينا .

وتزوج ابراهيم هاجر ، فحملت منه ، ففرح ، وخيل لسارة أن هاجر ارتفعت نفسها ، وتعاظمت عليها ، فلم تطق أن تكتم غيرتها فكانت تشكوها الى زوجها .

وضعت هاجر اسماعيل ، فطاف بالدار الفرح ، وسرت سارة ، ولكن سرعان ما غاض فرحها ، فقد كانت تشتهى أن يكون الولد منها .

ومرت الأيام ، واسماعيل يترعرع ، وسارة ترقبه وفى قلبها حزن ، فقد حرمت أن يكون لها من بعلها ولد .

وراح الناس ينزلون على ابراهيم ، فقد أوسع الله عليه ، وتقضت خمس عشرة ليلة ولم ينزل به أحد ، فقد حبس الضيف ، فشق ذلك عليه ، وهبط الليل ، فأوقد نارا لعل أحدا يأتيه ، وجلس أمام قبته ، واذا برجال قادمين ، فلما رأوه قالوا :

— سلاما "

قال :

— سلام قوم منكرون "

فراغ الى أهله ، فجاء بعجل سمين ، فقربه اليهم ، فلم يأكلوا ، قال :

— الا تأكلون ؟

ونظر اليهم فلما رأى أيديهم لا تصل اليهم نكرهم ، وأوجس منهم خيفة ، وقال :

ـــ إنا منكم وجلون .

ـــ لا تخف ، انا أرسلنا الى قوم لوط .

كانت سارة قائمة ، فلما رأت خوف زوجها ضحكت ، لأنها فطنت الى أن الرجال رسل الرحمن ، قالوا :

ـــ انا نبشرك بغلام عليم .

فلما سمعت سارة البشرى قالت :

ـــ يا ويلتى أألد وأنا عجوز ، وهذا بعلى شيخا ، أن هذا لشيء عجيب .

وقال ابراهيم :

ـــ أبشرتمونى على أن مسنى الكبر ، فبم تبشررون ؟

قالوا :

ـــ بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين .

قال :

ـــ ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون .

ـ ٦ ـ

حملت سارة ووضعت اسحاق ، ففرحت به ، وفرح به أبوه ، وتوجه الى الله يشكره :

ـــ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ، ان ربى لسميع الدعاء .

ورأت سارة أن تتخلص من اسماعيل وأمه ، فلما دخل ابراهيم عليها قالت فى غضب :

ـ اطرد هذه الجارية وابنها .

ـ لمـه ؟

ـ ان ابن الجارية لا يرث مع ابنى اسحاق .

ساء ابراهيم ما سمع ، وأحس مرارة ، فما كان يظن أن الأمـر يصل الى أن تطلب سارة اخراج هاجر وابنها من الشـام ، وكان لكلامها وقع ثقيل فى نفسه ، ففكر فى الا يجيبها الى طلبها ، وفيما هو فى حزنه وتفكيره ، أوحى الله اليه أن استمع الى سارة ، ولا تحزن على اسماعيل وأمه ، وأخرج بابنك ، فسأباركه وأجعله أمة عظيمة .

وتأهب ابراهيم للخروج بزوجه وابنه ، فأخذ خبزا وحمل قربة ماء ، وانطلق حيث أوحى الله اليه أن ينطلق ، حتى اذا بلغ مكة ترك هاجر واسماعيل وتأهب للعودة ، فهرعت هاجر اليه ، وقالت فى فزع :

ـ الى من تكلنا ؟

فلم يتكلم ابراهيم ، وظل فى صمته ، فقالت :

ـ الله أمركَ بهذا ؟

ـ نعم .

ـ اذن لا يضيعنا .

وانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا :

ـ ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهـوى اليهم ، وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .

— ٧ —

عاشت هاجر واسماعيل فى قلب الصحراء ، فى رعاية الله ، وتصرمت الأيام وهما فى عريشهما ، ونفد ما كان معهما من ماء ، فعطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر اليه يتلوى ، فانطلقت كراهية أن تنظر اليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، واستقبلت الوادى تنظر هل ترى احدا ، فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى اذا بلغت الوادى رفعت طرف ذراعيها ، ثم سعت سعى الانسان المجهود حتى اذا جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ، واستمرت تهرول فى فزع واعياء بين الصفا والمروة ، ثم ذهبت الى اسماعيل لترى ألا يزال حيا ، فرأت تحت قدميه ماء ، فقد فجر الله له زمزم ، فانكبت على الماء وجعلت تغرف منه ، تروى ظمأتها ، وتملأ سقاءها .

ومرت رفقة من جرهم مقبلين ، فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا ، فتعجبوا وقالوا :

— ان هذا الطائر ليدور على الماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء .

فانطلقوا ليروا ما هناك ، فرأوا زمزم وهاجر عندها ، فقالوا لها :

— تأذنين لنا أن ننزل عندك ؟

— نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء .

ـــ نعم .

فنزلوا وأرسلوا الى أهليهـــم ، فنزلوا معهم حتى صار بهم أهل أبيات منهم ، وشب اسماعيل بينهم ، وتعـــلم العـــربية منهـــم .

وأعجبهم حين شب ، فزوجوه منهم ليتحقق وعد الله بأن يباركه ويجعله أمة عظيمة .

ــ ٨ ــ

أحس ابراهيم شوقا الى ابنه ، فتأهب للخروج ، وأخبر سارة بخروجه ، فشاءت أن تثبطه غيرة من هاجر ، فأخبرها انه لن يزيد على السلام ، واستطلاع الحال .

وخرج ابراهيم فأتى مكة ، وذهب الى زمزم ، فألفى اسماعيل يبرى نباله تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام اليه ، فاعتنقا فى شوق ، وراحا يتحدثان ، وانطلقا الى الخيام .

ونام ابراهيم ، فرأى فى المنام أنه يذبح ابنه ، ولما كانت رؤيا الأنبياء وحيا ، فقد صدق الرؤيا ، وعزم على أن يمتثل لأمر الله ، ودعا اسماعيل ، وقال له :

ـــ يا بنى ، انى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى .

فقال اسماعيل :

ـــ يا أبت ، افعل ما تؤمر ، ستجدنى ان شاء الله من الصابرين .

ــ يا بنى خذ الحبل والمدية .

وانطلقا ، وفى الطريق اعترضهما ابليس فى هيئة رجل ، ودنا من ابراهيم وقال له :

ــ أين تريد أيها الشيخ ؟

ــ أريد هذا الشعب لحاجة لى فيه .

ــ تريده لتذبح ابنك ، لعل الشيطان جاءك فى منامك فأمرك بذلك ؟

فعرفه ابراهيم ، فقال له :

ــ اليك عنى ، أى عدو الله ، فوالله لأمضين لأمر ربى .

وسار ابراهيم مطرقا ، واسماعيل خلفه يحمل الحبل والشفرة ، فاعترضه ابليس وقال له :

ــ أتدرى أين يذهب بك أبوك ؟

ــ نعم ، أدرى .

ــ أتدرى أنه يزعم أن ربه أمره بأن يذبحك ؟

ــ فليفعل ما أمره الله ، سمعا لله وطاعة .

وانطلقا حتى اذا بلغا مكانا قصيا وقفا ، وقد دثر السكون سكون رهيب ، ووقف ابراهيم ينظر الى ابنه وقد تفجرت فى جوفه عواطف متباينة ، انه يحس حبا طاغيا لابنه ، ويحس رغبة فى تنفيذ أمر ربه ، وجعل يرمق ابنه الذى سيذبحه برهة ، فقال اسماعيل :

ــ يا أبت ، ان أردت ذبحى ، فاشدد رباطى ، لا يصيبك منى شىء فينقص أجرى ، فان الموت شديد ، وأشحذ شفرتك حتى تجهز على فتريحنى .

والقاه على وجهه وقلبه ينفطر حتى لا ينظر الى وجهه ، خشية أن تدركه رقة تحول بينه وبين أمر الله ، وكان على

اسماعيل قميص أبيض ، فقال :

— يا أبت ، انه ليس لى ثوب تكفننى فيه غير هذا ، فاخلعه عنى .

وراح اسماعيل يخلع قميصه ، وابراهيم يغالب عواطفه ويقول :

— نعم العون أنت يابنى على أمر الله .

وشحذ شنرته فكأنما كان يقطع بها مهجته ، وأضجع ابنه ، وهم بذبحه ، فسمع مناديا ينادى :

— يا ابراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، انا كذلك نجزى المحسنين ، ان هذا لهو البلاء المبين .

فالتفت ابراهيم ، فاذا بكبش أبيض أقرن ، قد بعثه الله فدية لاسماعيل ، فامتلأ فؤاد ابراهيم نشوة ، وأحس كأنما أثقال الدنيا انزاحت عن صدره ، وأكب على ابنه يقبله مغتبطا وهو يغمغم ودموعه تجرى على لحيته البيضاء :

— يا بنى اليوم وهبت لى .

— ٩ —

دثر مكان البيت المقدس ، وأصبح موضعه أكمة حمراء ، فأوحى الله الى ابراهيم : ان ابن لى بيتا ، فذهب الى ابنه اسماعيل ، وقال له :

— ان الله عهد الينا أن نطهر بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود .

فانطلقا الى مكان البيت ، فجعل ابراهيم يبنيه ، واسماعيل يناوله الحجارة وهما يبتهلان :

ـــ ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا ناسكنا ، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم .

وأراد ابراهيم أن يجعل للناس علما يبتدئون الطواف منه ، ويختمون به ، فقال لابنه :

ـــ يا بنى اطلب لى حجرا حسنا أضعه ههنا .

فراح اسماعيل يبحث ثم عاد بالحجر الأسود ، فوضعه ابراهيم موضعه، وبنى عليه ، ولما اتم ما أمر به قال :

ـــ رب ، قد فرغت .

قال :

ـــ اذن فى الناس بالحج .

ـــ أى رب ، ومن يبلغ صوتى ؟

ـــ أذن وعلى البلاغ .

ـــ اى رب ، وكيف أقول ؟

ـــ قل : يأيها الناس كتب عليكم الحج الى البيت العتيق ، فأجيبوا ربكم .

فوقف ابراهيم على المقام يؤذن فى الناس بالحج ، فجاء الناس من كل فج عميق .

ومرت الأجيال ، وتكاثرت ذرية اسماعيل تحقيقا لوعد الله ، وتلبية لدعوة خليله ، وبقى الحرم آمنا يجبى اليه ثمرات كل شىء ، تفد اليه أمة ، وتذهب عنه أمة من ذرية اسماعيل .

وجاءت جرهم ، واستخفت بأمر البيت الحرام ، فارتكبوا فيه المعاصى ، وخشى رئيسهم أن يسلبوا الكعبة ، وكان بهـا غزالتان من ذهب ، ودروع وأسياف وأموال ، فعمد اليها ودفنها فى زمزم وطم البئر واعتزل قومه .

وجاءت خزاعة وأخرجت جرهم من الحرم ، ولم تكن تدرى أمر زمزم ، فبقيت مطمـورة مجهولة ، وحفرت آبار أخـرى للنـاس (*)

وتصرمت السنون ، وقفتها الأجيال ، وأصبح عبـد المطلب سيد قريش ، وفى ذات يوم دخل الى الحجر ونام ، وفيما هو فى نومه اذ أتاه آت فقال له :

— أحفر طيبة .

— وما طيبة ؟

ثم ذهب عنه ، فلما كان الغد ، رجع الى مضجعه فنام ، فجاءه ، فقال له :

— أحفر برة .

— وما برة ؟

ثم ذهب عنه ، فلما كان الغد ، رجع الى مضجعه ، فنام ، فجاءه فقال له :

— احفر المضنونة .

— وما المضنونة ؟

ثم ذهب عنه ، فلما كان الغد رجع الى مضجعه ، فنام ، فجاءه فقال له :

ــ احفر زمزم ، انك ان حفرتها لا تنــدم ، وهى ميراث من أبيك الأعظــم ، لا تنزف أبدا ولا تذم ، تسقى الحجيــج الأعظم .

ــ وأين هى ؟

ــ بين الفرث والدم ، عند قرية النمل ، حيث ينقر الغــراب الأعصم .

فلما كان الغد ، ذهب عبــد المطلب ووحيــده الحارث الى قرية النمل ، فوجــد غــرابا ينقر بين الصنمين اساف ونائلة ، فجاء عبد المطلب بالمعول ، وقام ليحفر ، فقامت اليــه قــريش فقالوا :

ــ والله لا نتركك تحفر بين وثنينا اللذين ننحر عندهما .

فقال عبد المطلب لابنه الحارث :

ــ امنع عنى حتى أحفر ، والله لأمضين لما أمرت به .

فالتفت القوم الى عبد المطلب وفى عيونهم هزء وسخرية ، انه ليس له الا الحارث ، وأنى للحارث أن يمنع عنه ، فقال له عدى بن نوفل ساخرا :

ــ يا عبد المطلب ، ستطيل علينا وأنت فذ لا ولد لك ولا مال ، وما أنت الا واحد فى قومك !

فغضب عبد المطلب وقال لعدى :

ــ أتقول هذا وقد كان نوفل أبوك فى حجر هاشم !

ــ وأنت أيضا كنت فى يثرب عند أخوالك من بنى النجار ، حتى ردك عمك المطلب .

فقال عبد المطلب فى غضب :

ــ أو بالقلة تعيرنى ؟ فلله على النذر لئن آتانى الله عشرة من الأولاد الذكور ، لأنحرن أحدهم عند الكعبة .

فكف قومه عنه ، وظل يعمل حتى نبع الماء ، فاعترفوا بزمزم لعبد المطلب ، لا يخاصمونه فيها أبدا .

وكرت السنون ، وصار أولاد عبد المطلب عشرة ، وكان قد نسى نذره ، فدخل لينام ، واذا بهاتف يأتيه ، كما جاء جده ابراهيم خليل الرحمن من آلاف السنين :

ــ اذبح أحد أولادك وفاء لنذرك .

وكما أطاع ابراهيم وحى الله ، أطاع عبد المطلب رؤياه ، فجمع أولاده ، وخرج الى السادن يضرب القداح عليهم ، فخرج القدح على أصغرهم عبد الله ، وكان أحب ولده اليه ، فأخذه بيده ، كما أخذ ابراهيم اسماعيل ، وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به على اساف ونائلة والجموع خلفه ، لترى عبد المطلب يذبح حبيبه ، ارضاء لربه .

وبلغ سادات قريش ما اعتزم عليه عبد المطلب ، فخرجوا من أنديتهم مذعورين يخشون أن تصبح هذه العادة سنة فيهم ، وبلغ بنى مخزوم أخوال عبد الله ، ما عقد الشيخ عليه العزم ، فانطلقوا اليه ، فألفوه قد ألقى ابنه عبد الله على الأرض ووضع رجله على عنقه ، وأخذ الشفرة ليذبحه ، وقبل أن يذبحه ظهر سادات قريش يتصايحون :

ــ لا تفعل حتى تستفتى فيه ، لئن فعلت هذا ، لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه .

وقال بنو مخزوم :

ــ والله ما أحسنت عشرة أمه !

فأصر عبد المطلب على أن يوفى بنذره ، فقالوا له :

ـــ فلنأت كاهنة خيبر فنسألها ، فان أمرتك بذبحه ذبحته ، وان أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته .

وتجهزت الرواحل ، وانطلقوا الى خيبر ، ودخل عبد المطلب وهو يرجو فى نفسه أن تجد منفذا لنذره ، وجعل يقص عليها قصته حتى اذا ما انتهى ، تطلع اليها فى لهفة ، فقالت فى هدوء :

ـــ ارجعوا عنى اليوم حتى يأتى تابعى فأسأله .

فتركوها وخرجوا ينتظرون الغد ، وانقضى الليل فى قلق وارق ، ويأس ورجاء ، حتى اذا تنفس الصبح خرجوا اليها ، فاستقبلتهم فأحسنت استقبالهم ، ثم ابتدأت شفتاها تتحركان ، فتعلقت العيون بهما ، قالت :

ـــ قد جاءنى الخبر ، كم الدية فيكم ؟

ـــ عشرة من الابل ؟

فقالت لعبد المطلب :

ـــ تخرج عشرة من الابل وتقدح ، وكلما وقعت القداح على ابنك ، تزيد عدد الابل حتى تخرج القداح على الابل .

فسكنت الطمأنينة نفوس القوم ، وأحسوا راحة ، فقد أنقذت حياة عبد الله .

وراح عبد المطلب يضرب القداح ، وما زال يزيد عشرة عشرة حتى بلغت مائة ، فخرجت القداح على الابل ، فصاح القوم فى سرور :

ـــ لقد رضى ربك .

فقال عبد المطلب :

ـــ لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات .

فضرب ثلاث مرات ، فخرجت القداح عليها ثلاث مرات ، فاطمأنت نفس عبد المطلب ورضيت ، وراح ينحر الابل المائة فى ابتهاج ، وتركها للناس يأكلون ، لا يصد عنها أحدا .

— ١١ —

وخرج عبد المطلب الى اليمن فى رحلة الشتاء ، فنزل على حبر من اليهود يقرأ الكتاب ، فالتفت الحبر الى عبد المطلب وقال :

— ممن الرجل ؟

— من قريش .

— ان فى احدى يديك ملكا ، وفى الأخرى نبوة .

وانتهت أيام التجارة ، فعاد عبد المطلب الى مكة ، وكلمات الحبر تفد الى ذهنه كلما خلا بنفسه ، وخطب عبد المطلب الى بنى زهرة ، فخطب هالة بنت وهب لنفسه ، وخطب آمنة بنت وهب لابنه الذبيح عبد الله ، وتزوجا وأولما فى ليلة واحدة .

وتأهبت العير للخروج الى الشام ، فخرج عبد الله وقومه للتجارة ، فلما فرغوا من تجارتهم انصرفوا فمروا بالمدينة ، وكان عبد الله يحس مرضا ، فتخلف عند أخواله بنى النجار ، ثم ما لبث أن مات قبل أن يشهد وليده الذى حملت به آمنة بنت وهب . ونام عبد المطلب فى الحجر ، فرأى رؤيا هالته ، فقام الى كاهنة قريش يقص عليها ما رأى:

ـــ انى رأيت الليلة ، وأنا نائم فى الحجر ، كأن شجرة نبتت قد نال رأسهاالسماء ، وضربت بأغصانها المشرق والمغرب ، وما رأيت نورا أزهر منها ، ورأيت العرب والعجم ساجدين لها ، وهى تزداد كل ساعة عظما ونورا وارتفاعا ، ورأيت رهطا من قريش قد تعلقوا بأغصانها ، ورأيت قوما من قريش يريدون قطعها ، فاذا دنوا منها أخرهم شاب ، لم أر قط أحسن منه وجها ، ولا أطيب منه ريحا ، فيكسر أظهرهم ، ويقلع أعينهم ، فرفعت يدى لأنال منها نصيبا فلم أنله ، فانتبهت مذعورا فزعا .

فتغير وجه الكاهنة ، ثم قالت :

ـــ لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب .

وجاء البشير الى عبد المطلب بأن آمنة وضعت غلاما ، فظهر البشر فى وجهه ، وقام من مجلسه منطلقا الى دار آمنة ، ليرى حفيده ، وقد عزم أن يسميه قثم ، لأن ابنه قثم قد مات ، وهو ابن تسع سنين ، وقد خلف له حزنا شديدا ، فأراد أن يسمى حفيده باسمه تخليدا لذكرى ابنه ، فلما دخل على آمنة ، وأخذ الوليد بين يديه ، التفت الى أمه وقال :

ـــ لقد سميته قثم .

فقالت آمنة :

ـــ أمرت فى منامى أن أسميه محمدا .

وفى اليوم السابع أمر عبد المطلب بجزور فنحرت ، ودعا رجالا من قريش ، فجاءوا وأطعموا ، وجىء بالمولود فابتهجوا به ، وسألوا عبد المطلب عن اسمه ، فقال :

— محمد .

فنظر القوم بعضهم الى بعض فى عجب وقال أحدهم :

— ولم رغبت عن أسماء آبائك ؟

— ليكون محمودا فى السماء لله ، وفى الأرض لخلقه .

وانصرف القوم ، وما دار بخلد أحدهم أن ابن الذبيحين الذى ولد هو البشرى التى بشر الله بها هاجر واسماعيل يوم قال سبحانه : « قومى احملى الغلام وشدى يدك به ، لأنى سأجعله أمة عظيمة » وأنه دعوة ابراهيم التى دعاها يوم كان يرفع القواعد من البيت : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . انك أنت العزيز الحكيم) .

مـــــــوسى

(واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ، وناديناه من جانب الطـور الأيمن وقربناه نجيا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) .

« قرآن كريم »

— ١ —

أرسل يوسف يدعو اليه أباه وأهل بيته ، فوفد بنو اسرائيل الى مصر مع يعقوب ، ونزلوا بها ، وراحوا يتغلغلون فى ربوعها ، ويستولون على منابع الثروات فيها ، وما تصرمت ثلاثمائة سنة حتى امتلأت مصر بهم ، وأصبحت ثروتها فى أيديهم .

ورأى فرعون مصر أن اليهود صاروا سادتها ، فالأراضى أصبحت ملك يمينهم ، والصناعات تحت سيطرتهم ، والأموال تتسرب من جيوب الشعب الى خزائنهم ، فأوجس خيفة من اشتداد شوكتهم ، انهم غرباء عن البلاد ، فما يدريه اذا ما شبت حرب بينه وبين أعدائه ، أن ينضموا اليهم ، ليسلبوه مقاليد الحكم والسلطان !

وفكر فرعون ، فرأى أن يجردهم من أملاكهم ، وأن يصادر أموالهم ، وأن يسومهم سوء العذاب ، فضم أراضيهم الى أراضيه ، وأموالهم الى بيت ماله ، وجعلهم خدما له ، وصنفهم فى أعماله ، ففريق يبنون له المدن والمعابد ، وفريق يحرثون له أراضيه ، وفريق يزرعون ويحصدون .

أصبح بنو اسرائيل فى مصر عبيدا أذلاء ، يقاسون الهون والاضطهاد ، وعلى الرغم من الضنك الذى كانوا يعيشون فيه ، كانوا يتناسلون ويتكاثرون ، فأقلق تكاثرهم فرعون ، فراح يفكر فيما يفعله ليستأصل هؤلاء الذين هيجوا مخاوفه ، وليوقى نفسه ومملكته ثورة العبيد .

واهتدى فرعون الى فكرة ، فجمع القوابل من نساء أهل مملكته ، فقال لهن :

— لا يولدن على أيديكن غلام من بنى اسرائيل ، الا قتلتموه .

وذاع ذلك الأمر فى مصر ، فغشى بنى اسرائيل حزن عميق .

— ٢ —

راح رجال فرعون والقوابل يدورون على الحبالى من بنى اسرائيل ، ويعلمون ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأة ذكرا الا ذبحه أولئك الذباحون ، وحملت امرأة صالحة من العبرانيات ، وكانت فى قصر فرعون ، فركبها الهم ، كانت تخشى أن تضع ولدا فيذبحه المصريون ، فاحترزت وأخذت تخفى أمارات الحمل ، فلما جاءها المخاض وضعت

طفلها دون أن تلتمس أحدا لمعاونتها . وأحبت المرأة وليدها ، وأجج ذلك الحب الخطر المسلط عليه ، أنها لتخشى أن تفقده فى أى لحظة . ان هو الا أن يرفع صوته بالبكاء ، حتى يقتحم رجال فرعون عليها مخدعها ، وينزعوه من بين أحضانها ، ليذبحوه ذبح الأنعام .

كانت المرأة وابنتها الكبرى التى تعمل بالقصر تتناوبان رعايته ، وفى ذات ليلة وضعت الأم وليدها فى حجرها ، ورفعت عينيها الى السماء تلتمس من الله عونه ، فأوحى اليها :

— أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه ، فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك ، وجاعلوه من المرسلين .

ومرت ثلاثة أشهر ، والأم ترعى ابنها وخوفها يتزايد ، وفطنت الى أنها لن تستطيع أن تخفيه عن العيون المتربصة بأبناء اليهود . فعزمت أن تنفذ ما أوحى به اليها ، فجاءت بسفط من البردى ، ووضعت ابنها فيه ، ثم ألقت به فى النهر ، وما حمله التيار وبعد عنها حتى همت بالعدو خلفه ، والبحث عنه ، لولا أن ربط الله على قلبها ، وألهمها الصبر والامتثال لأمره .

ونادت أخته وقالت لها :

— اتبعى أثره ، لتعلمى خبره .

فسارت أخته على الشاطىء ، وهى ترمقه من طرف عينيها ، وتتظاهر أنها غافلة عنه ، حتى لا ينكشف أمرها ، وحمله التيار وانطلق الى جناح القصر المعد للحريم .

— ٣ —

خرجت آسية امرأة فرعون وجواريها يغتسلن فى النيل ، فلمحن بين الأشجار سفطا به غلام صغير ، فهرعت احداهن اليه وانتشلته ، فارتفع بكاء الطفل ، ومس أذنى آسـية ، فقالت :

— هذا بكاء طفل صغير .

وجاءت الجارية اليها تحمله وتقول :

— هذا طفل ألقى به أهله فى النيل .

نظرت آسية اليه ، فوقعت عليه رحمتها ، وأحبته ، فضمته اليها وقبلته ، فلما رأت أخته ذلك اكتنفتها راحة ، ونزل بقلبها اطمئنان ، ودنت تترقب ما يكون .

ودخلت آسية الى القصر ، وجـواريها حولها ، وأقبـل فرعون ، فلما رأى الطفل تحركت غلظته ، فقال :

— ما هذا ؟

— طفل التقطناه من اليم .

— انه ابن من أبناء العبرانيين ، اقتلوه .

— ارحمه يا مولاى ، انه طفل صغير .

— اقتلوه .

— قرة عين لى ولك . لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا .

وظلت تدافع عن الطفل ، وتلتمس من فرعون أن يبقيه ، واستمرت ترجوه وتلحف فى الرجاء وتستوهبه اياه ، حتى لان لتوسلاتها ووهبه لها .

فرحت آسية بالطفل الذى استحيته ، وحملته وضمته اليها وقد تحركت فيها احساسات الأمومة الرءوم ، وبكى الطفل فالتمست له المرضعات ، فلم يأخذ من أحد من النساء ، وجعل النساء يفدن ، لينزلن عند فرعون فى الرضاع ، ولكن الطفل استمر فى بكائه وامتناعه عن أن يلتقم ثدى احداهن .

وأشفقت آسية على الطفل ، وحارت فى أمره ، فدنت أخته منها ، وقالت لها :

ـ هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟

فنظرت آسية اليها وقد شاع فى وجهها أمل ؟

ـ أتعرفين أهل هذا الغلام ؟

ـ لا أعرفهم ، ولكن أعرف امرأة صالحة ، فلعله يأخذ ثديها .

ـ اذهبى ، وأتى بها .

وذهبت أخته تحث الخطا ، وقلبها يخفق فى مرح ، حتى اذا بلغت غرفتها فى القصر صاحت بأمها :

ـ أبشرى ، جاءك الفرج ! انهم يلتمسونك لترضعيه .

وانطلقت الأم يلفها اضطراب ، ولكنه اضطراب لذيذ يخدر المشاعر والحواس ، ودخلت على وليدها ، وكادت فرحتها تفضح خبيئة نفسها ، وكادت تغمغم فى وجد ، وهى تضمه الى الصدر الملهوف : « ولدى ، ابنى الحبيب » وكادت تصرح به لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين .

وناولته ثديها ، فأخذه ، فأشرق وجه آسية بالفرح . ونزل بقلب أمه سكينة ، وأطرقت برأسها شكرا الله ، فقد رده الله اليها ليكون من المرسلين .

— ٤ —

جلست آسية تنظر الى الطفل الذى تعلق به فؤادها ، والذى فجر فى نفسها ينابيع الحنان والرأفة ، فشاعت فى نفسها نشوة ، وأرادت أن تدعوه باسمه ، ولكنها لم تعرف بماذا تدعوه ، وفكرت فى أن تطلق عليه اسما ، انها وجدته بين الماء والشجر ، وراحت تردد بلغتها ماء وشجر : موشا ، ماء وشجر : موشا ، لماذا لا تدعوه موشا ، (ماء وشجر) ، واستراحت الى ذلك ، فنهضت الى الغلام تناغيه :

— تعال يا موسى ، تعال يا موسى يا حبيبى .

وحملته وقبلته وجعلت تداعبه ، وهى تحس احساسات فياضة صافية طاهرة .

وترعرع موسى فى قصر فرعون ، يركب مراكب فرعون ، ويلبس ما يلبس فرعون ، وكان الخدم يدعونه موسى بن فرعون ، ولكن موسى كان يعرف أهله ، وكان يعرف أنه من بنى اسرائيل ، وكانت أسعد أويقات صباه تلك السويعات التى يمضيها مع أخيه هارون .

ولما بلغ أشده واستوى آتاه الله حكما وعلما ، وفى ذات يوم أقبل موسى الى القصر ، ولما لم يجد فرعون سأل عنه ،

فقيل له انه خرج الى منف ، فركب موسى فى أثره ، ودخل منف فى نصف النهار . وقد أغلقت أسواقها ، فبينما هو يمشى فى ناحية المدينة ، اذ رأى رجلين يقتتلان ، أحدهما من بنى اسرائيل ، والآخر من قصر فرعون ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ، فوكزه موسى ، فقضى عليه ، قال :

ــ هذا من عمل الشيطان ، انه عدو مضلُ مبين .

ورفع وجهه الى السماء وقال :

ــ رب انى ظلمت نفسى ، فاغفر لى .

فغفر له ، انه هو الغفور الرحيم ، قال :

ــ رب ، بما أنعمت على ، فلن أكون ظهرا للمجرمين .

ــ ٥ ــ

أصبح الصباح ، فخرج موسى الى المدينة خائفا يترقب ، انه يخشى أن يكون فرعون وملؤه قد علموا أن هذا القتيل انما قتله موسى فى نصرة رجل من بنى اسرائيل ، انهم لو علموا ذلك لشكوا فى أنه منهم ، ولتعذر عليه أن يبقى فى القصر ، ليعمل على ما فيه مصلحة بنى اسرائيل .

وفيما هو منطلق يتلفت ، رأى ذلك الاسرائيلى الذى نصره بالأمس يقاتل رجلا آخر من المصريين ، فلما رأى موسى استصرخه :

ــ موسى ، انصرنى يا موسى .

فبان فى وجه موسى الغضب ، وقال للاسرائيلى :

ـ انك لغوى مبين .

وأقبل نحوهما ، فلما لمح الاسرائيلى الشر فى عينى موسى ، فرق منه ، وفر من وجهه وهو يقول :

ـ أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ، أن تريد الا أن تكون جبارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين .

سمع المصرى ما قاله الاسرائيلى ، فذهب الى القصر ، وأفشى أن موسى هو الذى قتل الرجل ، وبلغ النبأ مسامع فرعون ، فغضب وصاح :

ـ خذوه واقتلوه بجنايته .

وكان أحد أنصار موسى عند فرعون لما أصدر أوامره بقتله ، فخرج يغذ السير ، وجاء الى موسى رجل من أقصى المدينة يسعى ، وقال له :

ـ ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج .

فوقف موسى يتلفت فى حيرة ، لا يدرى الى أين يذهب ، انه لو بقى فى مصر لقبض عليه فرعون ، ونفذ فيه القتل ، ليس أمامه الا الخروج ، فانطلق هاربا لا يلوى على شىء .

سار موسى فى حلكة الليل ، وفى رائعة النهار ، يضرب فى الصحراء لا يسكت صراخ بطنه الا ورق الشجر ، ولا يطفىء ظمأه الا ما يصادف من الآبار ، لم يكن يعرف طريقه لأنه لم يخرج قبل ذلك من مصر ، ولما توجه تلقاء مدين قال :

ـ عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل .

بلغ موسى مدين ، وقد نال منه التعب والجوع ، ورأى شجرة فوقف تحتها يستظل بها ويستريح ، ومد بصره فاذا جماعة من الرعاة يسقون ، فذهب ليرد الماء فوجد من دونهم امرأتين تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم الناس ، فاقترب موسى منهما وقال :

— ما خطبكما ؟

قالتا :

— لا نسقى حتى يصدر الرعاة ، وأبونا شيخ كبير .

نظر موسى فوجد الرعاة قد وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة ، فتقدم فرفع الصخرة وحده ، وكان لا يرفعها الا عشرة ، ثم استقى لهما ، وسقى غنمهما ، ورد الحجر كما كان .

وتولى موسى الى ظل الشجرة ، وبطنه لاصق بظهره من الجوع ، وقال :

— رب ، انى لما أنزلت الى من خير فقير ؟

وعادت الفتاتان الى أبيهما ، فلما رآهما قال لهما :

— ما بالكما قد عدتما اليوم سريعا ؟

قالتا :

— عاوننا رجل كريم على سقى غنمنا .

وقالت صفورة ، ابنة الشيخ الصغيرة :

ـــ يلوح يا أبى أنه جائع مكدود .

فأمرها الشيخ أن تذهب اليه فتدعوه ، فجاءت تمشى على استحياء ، حتى اذا بلغته وهو فى ظل الشجرة ، قالت له :

ـــ ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا .

قام معها ، وقال لها :

ـــ أمضى .

فمشت أمامه ، فضربتها الرياح ، فبدت مفاتن جسمها ، فقال لها :

ـــ امشى خلفى ودلينى على الطريق ان أخطأت .

واستمر فى سيره حتى دخل على الشيخ ، وراح يقص عليه ما حدث له فى مصر . فلما انتهى من قصته ، قال الشيخ له :

ـــ لا تخف ، نجوت من القوم الظالمين .

وقدم الطعام لموسى ، فلما شبع قام لينصرف ، فقالت صفورة ابنة الشيخ الصغيرة :

ـــ يا أبت استأجره ، ان خير من استأجرت القوى الأمين .

فقال لها الشيخ :

ـــ وما علمك بهذا ؟

فقالت صفورة :

ـــ انه رفع صخرة لا يطيق رفعها الا عشرة .

ـــ وما أدراك بأمانته ؟

ـــ انى مشيت قدامه ، فلم يحب أن يخوننى فى نفسى ، وأمرنى أن أمشى خلفه .

فذهب الشيخ الى موسى وقال له :

— انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين ، على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فان أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ، ستجدنى ان شاء الله من الصالحين .

فقال له موسى :

— ذلك بينى وبينك ، أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على ، والله على ما نقول وكيل .

وتزوج موسى من صفورة ، وقد أجر نفسه للشيخ ثمانى سنين أو عشرا على عفة فرجه ، وطعام بطنه .

— ٧ —

رعى موسى للشيخ عشر سنين ، وكان يعاوده فيها الحنين الى أهله ، فلما أتم الأجل قال لصفورة :

— اشتقت الى أمى والى أخى هارون ، فتأهبى للخروج الى مصر ، فان لى فيها شيعة وأنصارا .

وتأهب موسى وزوجته وأولاده للخروج ، حتى اذا آذنت ساعة الرحيل ودعوا الشيخ وانطلقوا يضربون فى البيداء ، حتى بلغوا جانب الطور الأيمن فى عشية شاتية شديدة البرودة .

وجاء الليل ، وأرخى سدوله ، وأخذت السماء تبرق وترعد وتمطر ، فراح موسى يدور ببصره فى الفضاء ، فآنس من جانب الطور نارا ، فقال لأهله :

— امكثوا انى آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بخبر ، أو جذوة من النار لعلكم تصطلون .

وانطلق موسى فى وادى طوى يتوكأ على عصاه صوب النار ، فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين . فخاف موسى ، وفر مفزوعا ، ولما أفرخ روعه عاد ثانية الى النار ، فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة : أن يا موسى انى أنا الله رب العالمين .

وفر موسى مرعوبا ، وما بعد عن النار حتى عاد اليه روعه ، فدنا منها ، فلما أتاها نودى :

ــ يا موسى ، انى أنا ربك فاخلع نعليك ، انك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ، ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى .

وخلع موسى نعليه ولم يذهب عنه روعه ، فقال له الله مؤنسا :

ــ وما تلك بيمينك يا موسى ؟

ــ هى عصاى أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى .

قال :

ــ ألقها يا موسى .

فألقاها فاذا هى حية تسعى ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب . فناداه ربه :

ــ يا موسى لا تخف ، انى لا يخاف لدى المرسلون ، أقبل ولا تخف انك من الآمنين .

فلما رجع ، ورأى الحية تسعى ، بقى على خوفه ، فقال الله له :

ـــ خذها ولا تخف ، سنعيدها سيرتها الأولى .

فمد يده الى الحية فاذا هى قد عادت عصا كما كانت ، وقال له الله :

ـــ اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم اليك جناحك من الرهب .

فوضع موسى يده فى جيبه وأخرجها ، فاذا هى تتلألأ كالقمر بياضا من غير سوء ، وشغل فكره بالعصا التى صارت حية تسعى ، وبيده التى أضاءت كالبدر ، فقال الله له :

ـــ فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه ، انهم كانوا قوما فاسقين .

وعلم موسى ان الله أرسله الى فرعون الطاغية ، فقال :

ـــ رب ، انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءا يصدقنى ، انى أخاف أن يكذبون .

قال :

ـــ سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطانا ، فلا يصلون اليكما بآياتنا ، أنتما ومن اتبعكما الغالبون .

ـــ اذهب الى فرعون انه طغى .

فقال موسى فى ابتهال :

ـــ رب ، اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، وأحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى .

— ٨ —

وسار موسى وأهله حتى دخلوا مصر خلسة ، وذهب الى أمه ، فقرت به عينا ، وانتظر حتى جاء هـــارون ، فقام الاخوان يتعانقان ، وراح موسى يقص على أخيه قصته ، ثم قال له :

ــ يا هارون انطلق معى الى فرعون ، ان الله قد أرسلنا اليه .

فقام هارون ليــذهب مع أخيــه . فهبت أمهما اليهمـــا تصيح :

ــ أنشدكما الله أن لا تذهبا الى فرعون فيقتلكما .

فقال موسى لأمه :

ــ لا تخافى ولا تحزنى ، ان الله معنا ، لقد قال : اذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون ، فأتيا فرعون فقولا : انا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بنى اسرائيل .

فقالت له أمه :

ــ أخشى عليكما من فرعون .

فقال لها موسى :

ــ اطمئنى ، لقد بعثنى الله لأخلص بنى اسرائيل من العذاب ن .

وتحرك موسى وهارون للذهاب ، فقالت لهما أمهما :

ــ انتظرا حتى الصباح .

ــ سنذهب اليه الآن .

وذهبا الى القصر ، والتمسا مقابلة فرعون ، فقيل لهما :

— ماذا تريدان ؟

— أنا رسول رب العالمين .

وقيل لفرعون ان بالباب مجنونا زعم أنه رسول رب العالمين . فقال فرعون :

— أدخلوه ..

ودخل موسى وهارون على فرعون ، فنظر فرعون الى موسى مليا وقال :

— ماذا تريد ؟

— أنا رسول رب العالمين ؟ أن أرسل معنا بنى اسرائيل .

وعرف فرعون موسى ، فقال له فى استخفاف :

— الم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت ، وأنت من الكافرين .

عرف فرعون موسى ، وتذكر أنه قتل رجلا من رجاله وفر ، وأنه يأتيه الساعة ليقول له انه رب العالمين ، فجعل يرمقه فى زراية ، فقال موسى :

— فعلتها اذا وأنا من الضالين ، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما ، وجعلنى من المرسلين .

قال فرعون :

— وما رب العالمين ؟

قال :

— رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين .

قال لمن حوله :

— ألا تسمعون ؟

قال موسى :

ـــ ربكم ورب آبائكم الأولين .

قال فرعون لمن حوله :

ـــ ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون .

قال موسى مستأنفا حديثه :

ـــ رب المشرق والمغرب وما بينهما أن كنتم تعقلون .

وتضايق فرعون ، فحشر فنادى فقال :

ـــ انا ربكم الأعلى . يأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى .

- ٩ -

وعاد موسى وهارون يلتمسان الاذن لهما بالدخول على فرعون ، ولم يجرؤ أحد أن يرفع الى فرعون طلبهما ، وفى يوم ذكر له أصحابه أن الرجلين اللذين جاءا يدعوانه الى الههما واقفان ببابه ، فأمر بالسماح لهما بالدخول ، فلما مثلا بين يديه ، قال موسى :

ـــ يا فرعون ، انى أدعوك الى الله .

فقال فرعون فى غلظة :

ـــ لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين .

قال موسى :

ـــ أو لو جئتك بشىء مبين ؟

ـــ فأت به ان كنت من الصادقين .

فألقى عصاه ، فاذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين .

فنظر فرعون مدهوشا ، فقال له موسى وهارون :

ـــ انا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى اسرائيل ، ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ، انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى .

وسكن روع فرعون ، فعاد الى استخفافه ، قال :

ـــ فمن ربكما يا موسى ؟

قال :

ـــ ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

قال :

ـــ فما بال القرون الأولى ؟

قال :

ـــ علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك الآيات الأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى .

فقال فرعون فى غيظ :

ـــ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى .

قال :

ـــ موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى .

— ١٠ —

تأهب المصريون للعيد ، وخرجوا مبكرين وانطـلقوا الى الساحة الكبرى ، فان اليوم هو اليوم الذى جعله موسى بينه وبين فرعون موعدا . وجاء السحرة الذين جمعهم فرعون من أنحاء مملكته ، واصطفوا صفوفا ، وجاء فرعون ووزيره هامان وعلية القوم ، وتصدروا المكان ، وقال فرعون للسحرة :

ــ ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى .

وخرج موسى ومعه أخوه يتكىء على عصاه ، حتى أتى الجمع ، وفرعون فى مجلسه مع أشراف أهل مملكته ، فأقبل موسى على السحرة وقال لهم :

ــ ويلكم ! لا تفتروا على الله كذبا ، فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى :

فاختلف السحرة فيما بينهم ، فقال قائل منهم :

ــ هذا كلام نبى .

وقال قائل :

ــ هذا ساحر .

وقال بعضهم :

ــ هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما .

وأقبلوا على موسى وقالوا :

ــ يا موسى ، اما أن تلقى واما أن نكون أول من ألقى .

قال :

ـــ بل ألقوا .

فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . فنظر موسى فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة ، فأوحى الله اليه :

ـــ موسى : لا تخف ، انك أنت الأعلى ، والق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ، انما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى .

فألقى موسى عصاه ، فاذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك ، وانقلبوا صاغرين .

والقى السحرة ساجدين . قالوا :

ـــ آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون .

وثار فرعون ، وزاد فى ثورته أن موسى هزمه على مرأى من الملأ ، وان السحرة سجدوا لإلهه والناس ينظرون ، فخشى أن تشتعل الفتنة ، وأن يفلت زمام الشعب من يده ، فقال للسحرة .

ـــ آمنتم له قبل أن آذن لكم ، انه لكبيركم الذى علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى .

وكانت حلاوة الايمان قد مست قلوب السحرة ، فلم يفزعوا لما قال فرعون ، بل قالوا له فى اطمئنان :

ـــ لم نؤثرك على ما جاء من البينات والذى فطرنا ،

فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحياة الدنيا ، أنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى ، انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ، ومن يأتيه مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى .

— ١١ —

وضاق فرعون بموسى ذرعا ، انه يدعو الناس الى اله غير آلهة الفراعين ، وانه يفتن الفقراء والمستضعفين ، وان الناس يلتفون به ويعجبون ، وراح فرعون يفكر فيما يفعله وقد علاه الهم ، وقال الملأ من قوم فرعون :

— أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ، ويذرك وآلهتك ؟ .

قال :

— سنقتل أبناءهم ، ونستحيى نساءهم ، وانا فوقهم قاهرون .

وأمر فرعون بقتل أبناء بنى اسرائيل ، فنزل بهم كرب شديد ، فقال موسى لقومه :

— استعينوا بالله واصبروا ، ان الأرض يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

وزاد اضطهاد فرعون لهم ، فجاءوا موسى يقولون فى ضيق :

ـــ أوذينا من قبل أن تأتينا ، ومن بعد ما جئتنا .

قال :

ـــ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ، ويستخلفكم فى الأرض ، فينظر كيف تعملون ؟

وجلس فرعون على عرشه مهموما ، ان قتل أبناء اليهود لم يرحه من متاعب اليهود ، فطن الى أنه لن يستريح مادام موسى يسعى فى الأرض ، فالتفت الى من عنده وقال :

ـــ ذرونى أقتل موسى ، وليدع ربه ، انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد .

وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه :

ـــ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، ان الله لا يهـــدى من هو مسرف كذاب ، يا قوم ، لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا .

فقال فرعون فى اعتداد :

ـــ ما أريكم الا ما أرى ، وما أهديكم الا سبيل الرشاد .

وقال الذى آمن :

ـــ يا قوم انى أخاف عليـــكم مثل يوم الأحزاب ، مثـــل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد ، ويا قوم انى أخاف عليكم يوم التناد ،يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات

الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار .

والتفت فرعون الى وزيره وقال :

ـــ يا هامان ، ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات ، فأطلع الى إله موسى ، وانى لأظنه كاذبا .

فنظر هامان الى فرعون وفى عينيه حيرة ، فقال فرعون فى كبرياء :

ـــ ما علمت لكم من إله غيرى ، فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى .

وقال الذى آمن :

ـــ يا قوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع ، وأن الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ، يرزقون فيها بغير حساب .

ويا قوم مالى أدعوكم الى النجاة ، وتدعوننى الى النار ، تدعوننى لأكفر بالله ، وأشرك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار . لا جرم أن ما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن مردنا الى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى الى الله ، وان الله بصير بالعباد .

— ١٢ —

دخل موسى على فرعون يطلب منه تخليص بنى اسرائيل من العبودية وأن يرسلهم معه ليتركوا مصر ، فقال له فرعون :

— اذا تركتهم لك ، فمن يحرث لى أرضى ، ومن يسقى زرعى ، ومن يصنع لى اللبنات لأبنى صرحى ، لا يا ساحر لن أطلق لك عبيدى ، فادع ربك ليخلصهم من يدى .

وأخذ الله مصر بالسنين ونقص من الثمرات ، فتفشت المجاعة فى البلاد ، وانتشر الجوع ، وخشى فرعون العواقب ، فبعث الى موسى وقال له :

— ادع ربك يرفع عنا هذا البلاء .

— واذا رفعه عنكم ، أترسل معى بنى اسرائيل ؟

— أرسلهم معك .

ودعا موسى ربه ، فجاء الخصب وعم الرخاء ، ودخل موسى على فرعون يستنجزه وعده ، فأبى فرعون واستكبر وقال له :

— ما أصابنا الجدب الا بشؤمكم ، وما فعل الهك لنا شيئا ، اخرج من عندى فما كنت لأطلق لك عبيدى .

وهطلت الأمطار غزيرة ، فأتلفت الزرع ، وحاق الضيق بالبلاد ، وفزع فرعون وبعث الى موسى وقال له :

— ادع ربك يرفع عنا هذا البلاء .

فدعا موسى ربه ، فرفع مقته عن البلاد ، وذهب موسى الى فرعون يستنجزه وعده ، فأبى فرعون وتكبر وقال :

ـــ لن أتركهم لك حتى أبنى صرحى وأصعد الى السماء وأسمع ربك الذى يأمرنى بأن أرسلهم معك .

وسلط الله الجراد ، فلم يترك زرعا ولا ثمارا ، ولا سبدا ولا لبدا ، فجزع فرعون ، وفزع الى موسى :

ـــ ادع لنا ربك يرفع عنا هذا البلاء .

ـــ أو ترسل بنى اسرائيل معى ؟

ـــ أرسلهم .

فلما رفع الله عنهم نقمته ، عاد فرعون الى الاستكبار وقال لموسى :

ـــ مهما تأتنا من آية لتسخرنا بها فما نحن لك بمؤمنين .

وسلط الله عليهم القمل ، فسقطوا فريسة المرض الفتاك ، وانتشر فيهم الموت ، فكان يحصدهم حصدا ، فجزع فرعون وفزع وأهله الى موسى ، وقالوا :

ـــ يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل .

فلما كشف الله عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه ، اذا هم ينكثون ، فأرسل الله عليهم الضفادع والدم ، فهرعوا الى موسى وقالوا :

ـــ يأيها الســاحر ادع لنا ربك بما عهد عنــدك ، اننــا لمهتدون .

فلما كشف الله عنهم العذاب اذا هم ينكثون ، ونادى فرعون فى قومه ، قال :

ــ يا قوم ، أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجــرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هــذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أســورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين .

فاستخف قومه فأطاعوه ، انهم كانوا قوما فاسقين .

ــ ١٣ ــ

ما آمن لموسى الا ذرية من قــومه على خوف من فــرعون وملئهم أن يفتنهم ، وان فــرعون لعال فى الأرض ، وانه لمن المسرفين .

ونفد صبر بنى اسرائيل ، فالمحن تنزل بهم ، والبــلايا تتساقط عليهم ، ورجال فرعون يسومونهم العذاب ، ففزعوا الى موسى يطلبون منه أن يدعو الله ليخلصهم من محنتهم العظيمة ، فقال لهم :

ــ يا قــوم ، ان كنتم آمنتم بالله فعليــه توكلوا ، ان كنتم مسلمين .

فقالوا :

ــ على الله توكلنا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين .

فــأوحى الى مــوسى وأخيــه أن تبــوآ لقــومكما بمصر بيــوتا ، واجعــلوا بيوتكم قبــلة وأقيمــوا الصــلاة وبشر المؤمنين .

فراح موسى وهارون ينفذان وحى الله ، فاتخذوا لبنى اسرائيل بيوتا متميزة فيما بينهم ، ليكونوا على أهبة الرحيل اذا أمروا به ليعرف بعضهم بيوت بعض .

وقال موسى :

ــ ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا أطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم .

قال :

ــ لقد أجيبت دعوتكما ، فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون .

وتأهب بنو اسرائيل للخروج سرا ، ولكن كيف يخرجون وهم أرقاء ، للأرض ملاصقون ؟ ذهب موسى وأكابر بنى اسرائيل الى فرعون يرجونه فى أن يأذن لبنى اسرائيل فى الخروج الى عيد لهم ، فلم يقبل ، فظلوا به يرجون ويلحون فى الرجاء حتى قبل وهو كاره .

فرح بنو اسرائيل لقرب الخلاص ، فراحت الاسرائيليات يستعرن حليا من جاراتهن المصريات للتزين بها فى العيد ، فأعرنهن شيئا كثيرا ، ولما جن الليل ، ونشر رداءه الأسود يحجب كل شىء ، خرج بنو اسرائيل يتسللون ، واجتمعوا خارج المدينة وانطلقوا طالبين الشام .

وأغذوا السير ، ليفروا من الطاغية الذى استعبدهم وأذلهم ، وانطلقوا مهطعين لا يلوون على شىء ، واقترب مؤمن آل فرعون من موسى وقال له :

ــ يا موسى ، أين أمرت .

ــ البحر .

وجاء الموكلون باذلال بنى اسرائيل الى القصر يسعون ويقولون :

ـ خرج بنو اسرائيل الى العيد ، ولم يعودوا الى أعمالهم ، فضياع الملك لم يعد فيها من يحرثها ومن يزرعها ومن يجنى ثمارها ، وذاع فى مصر ان موسى قد خرج ببنى اسرائيل ، فخرج الناس من دورهم فزعين على حليهم التى استعارها منهم اليهود ، وهاجت البلاد وماجت وجمع فرعون جنوده ، وانطلق فى أثر الفارين ليعيدهم الى أراضيه ، ولينقذ من أيديهم ذهب البلاد الذى سلبوه .

ملأ الحنق فرعون ، واشتد غضبه ، فشرع فى استحثاث جيشه ليلحق الهاربين ويمحقهم ، فأوحى الله الى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون .

فراح موسى يجد السير ، ولكن ما أن أشرقت الشمس حتى كان جنود فرعون يلوحون فى الأفق القريب ، وتراءى الجمعان ، ولم يبق الا المقاتلة والمجادلة والمحاماة ، فتلفت أصحاب موسى وهم خائفون فالبحر أمامهم والجبال الشاهقة عن يسرتهم وعن أيمانهم ، فوقع الذعر فى قلوبهم وهرعوا الى موسى يصرخون فزعا :

ـ انا لمدركون .

فقال موسى فى ثبات :

ـ كلا ان معى ربى سيهدين .

وتقدم الى البحر وأمواجه تتلاطم كالجبال ، وقال :

ـ ههنا أمرت .

وجعل بعض ارجال يقتحمون بأفراسهم البحر مرارا ليسلكوه ، ولكنهم كانوا يرتدون خائبين ، وتفاقم الأمر ،

واقترب فرعون وجنوده فى جدهم وحدهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، فعند ذلك أوحى الله الى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فلما ضربه انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، فانحدر بنو اسرائيل فيه مسرعين ، فلما جاوزوه وخرج آخرهم منه ، وكان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون اليه ، فأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليعود سيرته الأولى ، فأوحى الله اليه :

ــ واترك البحر رهوا ، انهم جند مغرقون .

واقبل فرعون وهو على حصانه حتى وقف على شـــفير البحر ، فلما رآه منفلقا وقف ينظر مدهوشـــا ، وفكر فى أن يحجم ، ولكنه لم يشأ أن يظهر أمام جنوده رعديدا ، فاقتحم البحر وانطلق وتدفق جنوده خلفه ، حتى اذا كانوا جميعا فى البحر ، ارتطم البحر كما كان ، وأخذت الأمواج تتقاذف الجنود ، ورفعت فرعون وخفضته ، حتى اذا أدركه الغرق قال :

ــ آمنت أنه لا اله الا الـــذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين . وآمن ولم يكن ينفعه إيمانه ، وكان هو وجنوده من المغرقين ، وابتلعهم اليم ، فما بكت عليهم السماء والأرض ، وما كانوا منظرين .

انتقم الله من فرعون وجنوده ، فأغرقهم فى اليم ، لأنهم كذبوا بآياته ، وكانوا عنها غافلين ، وجاوز بنو اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فجاءوا الى موسى وقالوا له :

— اجعل لنا الها كما لهم آلهة .

فغضب موسى وقال لهم :

— انكم قوم تجهلون ، ان هؤلاء متبر ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون .

أغير الله أبغيكم الها وهو فضلكم على العالمين ؟ !

وسار موسى بقومه صوب بيت المقدس ، انه لا يستطيع أن يدخلها حتى يقاتل أهلها ، فقال :

— يا قوم ، اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين ، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم ، فتنقلبوا خاسرين .

قالوا :

— يا موسى ، أن فيها قوما جبارين ، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فانا داخلون .

قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما :

— ادخلوا عليهم الباب ، فاذا دخلتموه فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين .

قالوا :

ـ يا موسى ، انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا اننا ههنا قاعدون .

قال :

ـ رب ، انى لا أملك الا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين .

قال :

ـ فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين .

وبقى بنو اسرائيل فى التيه ، فى صحراء سيناء القاحلة الماحلة ، وراحوا يبحثون عن الماء ، فلم يجدوه ، فجاءوا الى موسى يفزعون اليه ، فاستسقى موسى لقومه ، فقال الله له :

ـ اضرب بعصاك الحجر .

فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، وكان أسباط اليهود اثنى عشر سبطا ، فكان لكل سبط عين تنبجس . وأحسوا الجوع ، فهرعوا الى موسى يلتمسون الطعام ، فدعا موسى ربه أن يطعمهم فأنزل عليهم المن والسلوى ، وضجر كثير من بنى اسرائيل بحياتهم الجديدة ، فجاءوا الى موسى ، وقالوا له :

ـ يا موسى ، لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك أن يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها .

فغضب موسى ، وقال لهم فى سخرية :

— أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم .

فما ان صكت سخريته آذانهم ، حتى زاغت أبصارهم ثم أطرقوا فى خجل شديد .

— ١٥ —

وواعد الله موسى ثلاثين ليلة وأتمها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون :

— اخلفنى فى قومى وأصلح ، ولا تتبع سبيل المفسدين .

وانطلق موسى لميقات الله الى جبل طور سيناء ، فكلمه ربه ، فناداه وناجاه ، وقربه وأدناه ، فطمع موسى فى أن يرى الله ، فقال :

— ربى ، أرنى أنظر اليك .

قال :

— لن ترانى ، ولكن انظر الى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال :

— سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين .

قال :

— يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين .

وكتب الله له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا

لكل شيء ، وتناول موسى الألواح ، وراح يقرأ ما كتب فيها وقد أرهفت حواسه : ان الله يأمره أن يسبحه ويقدسه لا اله الا هو ، ولا يشرك به شيئا ، ولا يقتل النفس التى حرم الله ، ولا يحلف باسمه كاذبا ، ويأمره بالمحافظة على السبت ، وأن يكرم أباه وأمه ، ليطول عمره فى الأرض ، ولا يقتل ، ولا يزنى ، ولا يسرق ، ولا يشهد على صاحبه شهادة زور ، ولا يمد عينه الى بيت صاحبه ، ولا يشتهى امرأة صاحبه ، ولا عبده ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئا من الذى لصاحبه .

وقال الله لموسى :

ـ ما أعجلك عن قومك يا موسى ؟

قال :

ـ هم أولاء على أثرى ، وعجلت اليك رب لترضى .

قال :

ـ فانا قد فتنا قومك من بعدك ، وأضلهم السامرى . فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا .

ـ ١٦ ـ

ذهب موسى لميقات ربه ، وكان موسى قد وعدهم ثلاثين ليلة ، فلما انقضت تلك الليالى ولم يعد ، جاء السامرى وقال لهم :

ـ ان موسى قد احتبس عنكم ، انه ليس براجع اليكم ، فينبغى لكم أن تتخذوا الها .

وفكر بنو اسرائيل فيما يقــول السامرى ، انهم طلبوا من موسى أن يجعل لهم الها كما للأقوام الذين مروا بهم آلهة ، ولكن موسى أبى وها هو ذا موسى قد ذهب ، فما الذى يحول بينهم وبين صنع الاله ، وأعجبتهم الفكرة ، فوافقوا السامرى على أن يصنعوا بأيديهم الها (•)

كان السامرى صــائغا ماهرا ، فأخـــذ منهم الحــلى التى استعاروها من المصريين ، وصنع لهم عجلا له خوار ، فاجتمع القوم يعبدونه ويقولون :

ــ هذا الهكم واله موسى فنسى .

فقال لهم هارون :

ــ يا قوم . انما فتنتم به ، وان ربكم الرحمن . فاتبعونى وأطيعوا أمرى .

قالوا :

ــ لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى .

ورجع موسى الى قومه غضبان أسفا ، فبلغ سمعه أصوات عزف ، فانطلق الى الصوت ، فاذا القوم يعزفون ويرقصون حول العجل . فصاح فى غضب :

ــ بئسما خلفتمونى من بعدى ، أعجلتم أمر ربكم .

وألقى الألواح وقال :

ــ يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ؟ أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ، فأخلفتم موعدى !

قالوا كاذبين :

ــ ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم ، فقذفناها .

فتضايق موسى من هؤلاء الذين تحــرجوا من تملك حلى

المصريين التى سلبوها ، ولم يتحرجوا من عبـــادة العجـــل ، وذهب يبحث عن هارون ، فلما وجده أخذه برأسه يجره اليـــه ويقول :

ــ يا هارون ما منعك اذ رأيتهم ضـــلوا أن لا تتبعن ، أفعصيت أمرى ؟

ــ يابن أم ، ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ، فلا تشمت بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين .

وجره موسى من شعره وهو يقول :

ــ هلا قاتلتهم اذ علمت أنى لو كنت فيهم لقاتلتهـــم على كفرهم ؟

ــ يابن أم ، لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى .

فرفع موسى وجهه الى السماء وقال :

ــ رب أغفر لى ولأخى ، وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين .

وبعث الى السامرى ، فلما جاء قال له :

ــ فما خطبك يا سامرى ؟

قال :

ــ بصرت بما لم يبصروا به ، بصرت بجـــبريل ، فقبضت قبضـــة من أثره ، فنبذتها وطرحتهـــا فى العجل ، فأصبح له خـــوار .

ــ ولماذا فعلت ذلك ؟

ــ كذلك سولت لى نفسى .

قال :

ــ اذهب ، فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس . وان

لك موعدا لن تخلفه ، وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا ، لنحرقنه ، ثم لننسفه فى اليم نسفا .

ونسف موسى العجل وقال لقومه :

ــ انما الهكم الله الذى لا اله الا هو ، وسع كل شىء علما .

وأطرق بنو اسرائيل خجلا ، فقال موسى لهم :

ــ يا قوم ، انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا الى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم .

فأصبحوا وقد أخذ من لم يعبد العجل فى أيديهم السيوف ، ثم مالوا على عابديه فقتلوهم . ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح ، وفى نسختها هدى ورحمة للذين لربهم يرهبون .

ورأى بنو اسرائيل أن يستغفروا ربهم ، فكلموا موسى ، فاختار موسى سبعين رجلا من علماء بنى اسرائيل ، وانطلقوا ليعتذروا عن بنى اسرائيل ، واقتربوا من الجبل ، فصعد موسى يكلم ربه ، وصعد بنو اسرائيل يسمعون ، وجعل موسى يعتذر عن عبادة العجل ، ثم رجع الى قومه ، فقالوا له :

ــ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة .

فانقضت عليهم صاعقة من السماء ، فماتوا جميعا . فقال موسى لربه :

ــ رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ان هى الا فتنتك ، تضل بها من تشاء ، وتهدى من تشاء ، أنت ولينا ، فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين .

قال :

ـ عذابى أصيب به من أشـــاء ، ورحمتى وســـعت كل شىء .

وظل موسى يناجى ربه حتى بعثهم من بعد موتهم .

- ١٧ -

أصبح القـــوم فاذا بشيخ مقتول ومطـــروح فى مجمـــع الطرق ، واذا بنـــاس ملتفون حـــوله يتخاصمون فيه ، كـــل منهم يدعى ان الآخر قتله ، وجاء ابن أخيه يصرخ ويتظـــلم ، فقالوا :

ـ مالكم تختصمون ولا تأتون نبى الله ؟

فجاء ابن أخيه ، وشـــكا أمر عمـــه الى موسى ، فقـــال موسى :

ـ أنشـد الله رجلا عنده علم من أمر القتيل الا أعلمنا به .

فلم يقل أحـــد شيئا ، وحـــار النـــاس فى أمـــر القتيل ، فقالوا لموسى :

ـ يا موسى ، اسأل ربك فى هذه القضية .

وذهب موسى يناجى ربه ، ثم عاد الى قومه وقال :

ـ ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة .

قالوا :

ـ أتتخذنا هزوا ؟

قال :

ـ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين .

قالوا :

ــ ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ؟

قال :

ــ انه يقول انها بقرة ، لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون .

قالوا :

ــ ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها !

قال :

ــ انه يقول انها بقرة صفراء ، فاقع لونها تسر الناظرين .

قالوا :

ــ ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ، ان البقر تشابه علينا ، وإنا إن شاء الله لمهتدون .

قال :

ــ انه يقول انها بقرة ، لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، مسلمة لاشية فيها .

وراحوا يبحثون حتى وجدوها ، قالوا :

ــ الآن جئت بالحق .

فذبحوها وهم مترددون ، ثم أمرهم أن يضربوا القتيل ببعضها ، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى ، فقام وهو تشخب أوداجه ، فسأله موسى :

ــ من قتلك ؟

قال :

ــ قتلنى ابن أخى هذا الذى يصرخ ويتظلم ، قتلنى لبرث مالى ، وسقط ميتا كما كان .

— ١٨ —

قام موسى خطيبا فى بنى اسرائيل ، فسئل :

— أى الناس أعلم ؟

فقال :

— أنا .

فعتب الله عليه ، وأوحى الله اليه :

— ان لى عبدا بمجمع البحرين ، هو أعلم منك .

— يا رب وكيف لى به ؟

— تأخذ معك حوتا ، فتجعله بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم .

فأخذ حوتا فجعله بمكتل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه ، حتى اذا أتيا الصخرة وضعا رأسيهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل ، فخرج منه وسقط فى البحر ، فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، واستيقظا فانطلقا حتى اذا أحسا تعبا ، قال موسى لفتاه :

— آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا .

فذهب فتاه ، فلم يجد الحوت ، فعاد اليه وقال :

— أرأيت اذ أوينا الى الصخرة ، فانى نسيت الحوت ، وما أنسانية الا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا .

فعلم موسى أن ذلك المكان هو الذى سيجد عنده الرجل الصالح ، فقال :

ـــ ذلك ما كنا نبغ .

فرجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا الى الصخرة ، فاذا رجل مسجى بثوب ، فسلم عليه موسى ، فقال الرجل :

ـــ وانى مقرئك السلام .

ـــ أنا موسى .

ـــ موسى نبى اسرائيل ؟

ـــ نعم ، أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا .

قال :

ـــ انك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ؟

قال :

ـــ ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا .

قال :

ـــ فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا .

فانطلقا يمشيان على شاطىء البحر ، فمرت سفينة ، فركبوا فيها ، فقصد الرجل العالم الى لوح من الواح السفينة وقلعه ، فقال له موسى :

ـــ قوم حملونا بغير نول ، عمدت الى سفينته فخرقتها لتغرق أهلها ، لقد جئت شيئا امرا .

قال :

ـــ ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا ؟

قال :

ـــ لا تؤاخذنى بما نسيت ، ولا ترهقنى من أمرى عسرا .

وجاء عصفور ، فوقف على حرف السفينة ، فنقر فى البحر نقرة ، فقال الرجل العالم :

— ما علمى وعلمك فى علم الله الا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

ثم خرجا من السفينة ، فبينما هم يمشيان على الساحل اذ بصر الرجل بغلام يلعب مع الغلمان ، فأخذ رأسه بيده فقتله ، فقال له موسى :

— أقتلت نفسا زكية بغير نفس ، لقد جئت شيئا نكرا .

قال :

— ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا ؟

قال :

— ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذرا .

فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض ، فأقامه فقال له موسى :

— قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ، ولو شئت لاتخذت عليه أجرا .

قال :

— هذا فراق بينى وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا : أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ، اذا مر بها يدعها بعيبها فاذا جاوزهم أصلحوها فانتفعوا بها . ، أما الغلام فكان أبواه مؤمنين ، فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما

خيرا منه زكاة وأقرب رحما . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ، ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلت شيئا من تلقاء نفسى ، وما فعلته عن أمرى ، بل بأمر ربك . ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا .

— ١٩ —

وكان قارون من قوم موسى وكان حسن الصوت ، اذا قرأ التوارة خشعت له القلوب ، وكان مؤمنا ، فأعطاه الله من فضله ، وآتاه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، وأحب ماله ، فشغل به عن العبادة وبغى .

وفى يوم خرج فى موكب عظيم ، فى ثياب فاخرة ، تجرى أمامه المراكب ، ويحف بموكبه الخدم والحشم ، فنظر الناس اليه مدهوشين ، وقال الذين يريدون الحياة الدنيا :

— يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون ، انه لذو حظ عظيم .

وقال الذين أوتوا العلم :

— ويلكم ! ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون .

وجاء أناس صالحون من قومه فوجدوه عاكفا على الشراب وتحصيل اللذات ، فقالوا له :

— لا تفرح بما أوتيت ، وتفخر على غيرك ، ان الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك

من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين ».

فقال لهم قارون :

ــ انما أعطانى الله هذا لعلمه أنى أستحقه ، وأنى أهل له ، ولولا أنى حبيب اليه لما أعطانى هذا المال الوفير .

ــ ان الله قد أهلك من قبلك من هو أشد منك قوة ، وأكثر جمعا .

وظل قارون يخرج على قومه فى زينة يفتنهم ، وظل فى لهوه وعبثه ، فراح موسى يؤنبه ، ويدعوه الى انفاق ذلك المال فى سبيل الله ، ولكن قارون صم أذنيه عن أن يسمع نصحه ، وضاق بذلك النصح ، فراح يفكر فى القضاء على موسى ، فاستدعى امرأة بغيا ، وأعطاها مالا ، على أن تقول لموسى وهو فى ملأ من الناس : انك فعلت بى كذا وكذا .

وجاءت اليه المرأة وهو قائم فى قومه ، فقالت له :

ــ يا موسى ، لقد جئت أشكو الى الناس ما فعلته بى .

فقال لها موسى :

ــ وماذا فعلت بك ؟

ــ فعلت بى كذا وكذا .

فأرعد موسى من الفرق ، وظل فى اضطرابه فترة ، ثم أقبل عليها يستحلفها ، ويسألها عما حملها على افتراء ذلك البهتان الكبير ، فقالت المرأة فى ندم :

ــ يا موسى ، حرضنى على ذلك قارون .

فخر موسى لله ساجدا ، ثم انطلق الى قارون وقال له :

ــ ما حملك على هذا ؟

ــ يا موسى ، أما لئن كنت فضلت على بالنبوة ، فلقد

فضلت عليك بالمال ، وما أنت بخير منى ، ولن شئت لتخرجن فلتدعون على ، ولادعون عليك .

فخرج موسى فى قومه ، وخرج قارون فى قومه ، فقال له موسى :

ــ تدعو أو أكون أول من دعا ؟

فقال قارون :

ــ أدعو أنا .

ووقف قارون يدعو الله أن ينزل غضبه بموسى وقومه ، فلم يستجب الله دعاءه ، فقال موسى :

ــ أدعو ؟

قال :

ــ نعم .

فقال موسى :

ــ اللهم مر الأرض فلتطع اليوم .

فخسف الله به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين .

وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون :

ــ ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ! ، ويكأنه لا يفلح الكافرون .

— ٢٠ —

بقى اليهـــود فى التيه لا يفكرون فى الدخـــول الى الأرض المقدســـة ، فانها محرمة عليـــهم أربعين ســـنة ، ومـــرت السنون ، فمات هارون ، فحزن بنو اسرائيل عليه ، فقـــد كان عليهم لينا ، ومات بعده موسى ، فشـــق ذلك عليهم ، وراحوا يبكونه ، والتفوا حول فتاه يوشع بن نون ، وما انقضت سنون التيـــه حتى قادهم يوشع لحرب الجبارين والدخول الى أرض فلسطين .

داود

**(واذكر عبدنا داود ذا الأيد أنه أواب ،
انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى
والاشراق ، والطير محشورة كل له أواب .
وشددنا ملكه ، وآتيناه الحكم وفصل الخطاب)**

« قرآن كريم »

— ١ —

خيمة الرب التى يعبد فيها يهوذا اله اسرائيل غارقة فى الدنس ، فالكاهن عالى اتخذ خدمة المعبد تجارة لجمع الأموال ، ووقف أبناؤه ببابها لتحصيل اللذات ، أنهم يترصدون الفتيات الاسرائيليات الجميلات ليضاجعوهن قبل الدخول للعبادة والاستغفار ! وان عالى ليعلم بما يأتيه أبناؤه ، فلا يزجرهم وقد تفشت الفاحشة فى بنى اسرائيل ، وصارت طابع الجميع ؟ !

وكان يعيش فى تلك الخيمة شمويل ، ذلك الغلام الهابط من نسل النبوة ، الذى وهب حياته لعبادة الله ، فكان يدعوه بقلب طاهر ، ولولا ذلك الغلام المبارك لأنزل الله عذابه بالخيمة الغارقة فى المعاصى والمنكرات .

وفى ذات ليلة دخل شمويل لينام الى جنب الشيخ

عالى ، وفيما هو غارق فى نومه ، بلغ سمعه صوت أشبه بصوت الشيخ يدعوه :

ـ شمويل .. يا شمويل .

فهب الغلام فزعا الى الشيخ فقال :

ـ يا أبتاه ! دعوتنى ؟

فنظر الشيخ الى الغلام فى انكار ، ثم قال له :

ـ يا بنى ارجع فنم .

فرجع شمويل فنام ، واذا بصوت الشيخ يدعوه :

ـ شمويل .. يا شمويل .

فهب الغلام فزعا الى الشيخ فقال :

ـ يا أبتاه ! دعوتنى ؟

فقال له الشيخ وهو نائم :

ـ ارجع فنم ، فان دعوتك الثالثة فلا تجبنى .

فرجع شمويل وما ان داعبه النوم حتى سمع صوتا أشبه بصوت الشيخ يدعوه :

ـ شمويل ... يا شمويل قم .

فقام ونظر أمامه فاذا بجبريل يحادثه :

ـ اذهب الى قومك ، فبلغهم رسالة ربك ، فان الله قد بعثك فيهم نبيا .

وظل جبريل يوحى اليه ما شاء الله أن يوحى اليه .

وأصبح الصباح فقال عالى لشمويل :

ـ ماذا حدث البارحة ؟

فقال شمويل :

ـ لقد أوحى الله الى أنه سينزل غضبه عليك وعلى بيتك ،

جزاء لسكوتك على ما يفعله أبناؤك من المنكرات .

فأطرق الشيخ مليا ثم قال :

ـــ أتوب الى الله ، وأقرب له قربانا .

ـــ لن يكفر عن خطاياكم شىء .

فقال عالى فى استسلام :

ـــ هو الله ، يفعل ما يشاء .

ــ ٢ ــ

صار شمويل نبيا لليهود ، يدعوهم الى عبادة الله ، وهجر السيئات ، فكانوا يصغون الى دعوته ويعجبون بها ، ولكنهم ما كانوا يعملون على اتباعها ، فقد غرتهم الدنيا ، وصاروا عبيدا للذات .

وكانت العداوة قائمة بين الفلسطينيين وبنى اسرائيل فكانت الحرب تنشب بينهما فى كل حين ، تأهب الفلسطينيون لقتال اليهود ، واستعد بنو اسرائيل للنزال ، ودارت معركة بين الجمعين ، فانهزم اليهود وانكسروا ، وقتل منهم خلق كثير .

واجتمع شيوخ اليهود يفكرون فيما أدى الى هزيمتهم النكراء وأخذوا يتشاورون ، فأرجعوا سبب تخلى الله عنهم الى أنهم خرجوا للقاء أعدائهم دون أن يأخذوا معهم التابوت المبارك ، الذى وضعوا فيه الألواح المقدسة ، وبقية

مما تـــرك موسى وآل هارون . انهـــم ما حـــاربوا أعـــداءهم ومعهـــم التابوت الا أيدهم الله بنصر من عنـــده ، فبعثـــوا الرجال ليحضروه ، ليبـــدل خوفهـــم أمنا ، ويقـــلب الهزيمة نصرا .

وجىء بالتابوت ، فدبت الحماســـة فى صـــدور اليهود ، فهتفوا مستبشرين ، فتجاوب الهتاف فى أرجاء المكان ، وبلغ مسامع الفلســـطينيين ، فأشـاع الخـــوف بينهم ، وزاد فى خوفهـــم علمهـــم أن اليهـــود قد أحضروا التابوت الـــذى به ينصرون .

وقام رجل بين الفلســـطينيين يحمســـهم ويحضـــهم على القتال ، فقال لهم :

ـــ يا قـــوم ، لقد جاءكم أعـــداؤكم بالههم لقتـــالكم ، فاذا أصابكم الوهن ، فستهزمون وتصـــبحون عبيـــدا لليهود بعد أن كانوا عبيدا لكم ، فحاربوا عن نسائكم وأبنائكم وأعراضكم .

وهجم الفلسطينيون على الأعداء هجوم الليوث ، ففر اليهود مفزوعين ، فقد كانت قلوبهم خواء ، وما كانت هتافاتهم المدوية للتابوت الا صيحات جوفاء ، أطلقتها الحناجر لتذهب فى الهواء .

تداعى اليهود قتلى تحت سيوف الفلسطينيين ، ونجا بجلده من أطلق ساقيه للريح ، وسقط التابوت غنيمة باردة فى أيدى الأعداء ، واستمر الهاربون فى جريهم ، حتى ابتعدوا عن ميدان الطعن والنزال .

ودخل رجل المدينة وهو ممزق الثياب ، يعلو رأسه التراب ، وفى وجهه هلع واضطراب ، فقام الناس اليه يسألونه :

ـــ ماذا وراءك ؟

فقال وهو يتلفت كأنما يعدو خلفه مارد جبار :

ــ الهزيمة والانكسار .

فارتجت المدينة بالصياح ، وبلغت الأصوات مسامع عالى ، فقال :

ــ ماذا جرى ؟ ماذا جرى ؟

وكان الرجل قد وصل الى عالى ، فقال للشيخ الجالس على كرسيه :

ــ هزمنا هزيمة منكرة .

ــ وماذا فعل الناس ؟

ــ قتل منهم الآلاف .

ــ وأبنائى ؟

ــ قتلوا جميعا .

ــ والتابوت ؟

ــ أخذه الأعداء .

وبان فى وجه الشيخ القهر الشديد ، وعلاه عبوس ، ومال الى الوراء فى ضيق ، فسقط عن كرسيه ، فوقع على رأسه ودقت عنقه أمام خيمة الرب ، فى نفس المكان الذى كان يضطجع فيه أبناؤه مع فتيات اسرائيل الجميلات ، الوافدات للعبادة والاستغفار ؟!

— ٣ —

ومرت السنون ، وشمويل يدعو اليهود الى الله ، وفى ذات يوم جمعهم ، وقال لهم :

— توبوا الى الله ، وأخلصوا له ، وانزعوا من عبادة البعليم والعشتاروت والآلهة الغريبة التى لا تنفعكم ولا تضركم ، واعبدوه وحده يخلصكم من أعدائكم ، وينصركم عليهم .

فقالوا له :

— تبنا الى الله وأنبنا .

فأمرهم أن يصوموا ذلك اليوم ، تطهيرا لنفوسهم ، وتقربا الى الله ، ليؤيدهم بنصر من عنده ، ودارت المعارك بين بنى اسرائيل وأعدائهم ، فانتصر اليهود ، لأن شمويل طهرهم من رجسهم ، وبث فيهم روح التضحية والاقدام . وأصبح شمويل شيخا ، فاجتمع أكابر بنى اسرائيل يديرون قداح الرأى بينهم ، ثم ذهبوا الى نبيهم وقالوا له :

— يا شمويل ، أصبحت شيخا وقد جئناك لتدعو ربك ، ليجعل علينا ملكا يحكمنا ويجمعنا حوله ، ككل شعوب الأرض ، ويقودنا لنقاتل فى سبيل الله .

فقال لهم شمويل :

— اننى ان ذهبت أترككم لله وهو خير راع لكم .

فقالوا له :

— يا شمويل اننا نعلم ذلك ، ولكننا نريد ملكا يلم شملنا ، ونلتف حوله .

فقال لهم شمويل ليردهم عن رأيهم :

ـ أتعلمون ماذا يفعل الملك فيكم ؟ سيأخذ أبناءكم ليركضوا أمام مراكبه ، ويجعل لنفسه آلاف الخدم والعبيد ليحرثوا أرضه ، ويحصدوا حصاده ، ويأخذ بناتكم سرارى وحظايا ، ويستولى على أجود أراضيكم ليمنحها عبيده ، ويسخر عبيدكم وجواريكم ليعملوا فى أرضه ، وستصبحون جميعا عبيدا له ، وستضرعون الى الله أن يخلصكم منه ، ويومها لن يسمع الله دعاءكم .

فقالوا له :

ـ يا شمويل ، اننا نعلم كل ذلك ، اننا نقبله . ان كل ما نبغيه أن يكون علينا ملك ، يجمع كلمتنا ، ويقودنا لقتال أعدائنا الذين أذلونا .

فقال لهم شمويل :

ـ هل عسيتم أن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟

فقالوا له :

ـ وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا .

وراح شمويل يصلى لله ويدعوه أن يجيب رغبة قومه ، وفيما هو فى دعائه أوحى الله اليه أنه سيجعل طالوت عليهم ملكا ، فخرج شمويل الى قومه ، وقال لهم :

ـ يا قوم ، ان الله استجاب لدعائنا ، وسيبعث لنا ملكا .

فقالوا له فى لهفة :

ـ من هو ؟

فقال شمويل فى هدوء :

ــ طالوت .

فانبعث من الناس أصوات استنكار ، فقد كان طالوت رجلا فقيرا ، وقال بعضهم :

ــ كيف يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ؟

قال شمويل :

ــ ان الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يعطى ملكه من يشاء ، والله واسع عليم .

وقال قائل منهم :

ــ وما أدرانا أن الله اختار طالوت ليكون ملكا علينا ؟

فقال لهم نبيهم :

ــ ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت ، فيه سكينة من ربكم ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، تحمله الملائكة ، ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين .

وانتظر بنو اسرائيل آية الله ، واذا بهم يجدون التابوت أمامهم ففرحوا وهتفوا بحياة طالوت ، الملك الجديد .

ــ ٤ ــ

جمع طالوت بنى اسرائيل حوله ، وراح يقودهم من نصر الى نصر ، وجاءه شمويل يوما وقال له :

ــ ان الله يأمرك أن تذهب الى العماليق وأن تحاربهم ، فاذا انتصرت عليهم فاذبح رجالهم ونساءهم وأطفالهم وأبقارهم وجمالهم وحميرهم ، ولا تدع لهم شيئا .

فجمع طالوت جموعه وانطلق لقتال العماليق ، فهزمهم ، وأسر أجاج ملكهم ، ودخل اليهود مدنهم ، فلما وجدوا الأبقار والجمال والخراف تحرك فيهم طمعهم ، وعز عليهم أن يقتلوا هذه الأنعام تنفيذا الأمر الله ، فراحوا يقتلون الأغنام الهزيلة ، ويسوقون أمامهم العجول الحنيذة ، والأبقار الجسيمة ، والجمال الكريمة ، والخراف السمينة .

وجاء شمويل ودخل على طالوت ، فقام طالوت اليه ، وقال له :

ـــ أنت رجل مبارك ، أمرتنى بما أوحى الله اليك ، فخرجت الى العمالقة وهزمتهم ، ونفذت ارادة الله .

فقال شمويل :

ـــ ولكنك لم تنفذ أوامر الله ، اننى أسمع رغاء الابل ، وثغاء الشاء .

ـــ لقد أخذ الشعب هذه الأغنام لتذبح تقربا لله .

ـــ أن تصدع لأوامر الله خير من أن تتقرب اليه بذبيحة .

ـــ اننى أتوب الى الله .

ـــ وأجاج ملكهم ، لماذا أسرته ولم تقتله .

ـــ وجدت أن فى أسره اذلالا له .

ـــ اقتله ، اقتله الآن .

ـــ أفعل .

ـــ أصبحت ملك اسرائيل يوم كنت متواضعا فى نفسك ، فما الذى غرك لتعصى أوامر الله ؟

ـــ سأتضرع الى الله أن يغفر لى خطيئتى ، تعال ابتهل اليه معى أن يعفو عنى .

فقال شمويل :

ــ لا أذهب مع من عصى أوامر الرب .

وأراد شمويل أن ينصرف ، فأمسك طالوت بذيل جبته فتمزق .

فقال شمويل :

ــ يمزق الله مملكة بنى اسرائيل عنك .

فقال طالوت متوسلا :

ــ لقد أخطأت ، والآن فأكرمنى أمام شيوخ شعبى ، وأمام اسرائيل ، وارجع معى فأسجد لله وأدعوه أن يغفر ذنبى .

وسجد شمويل وطالوت لله يلتمسان غفرانه .

ــ ٥ ــ

دخل طالوت قصره ، فأحس انقباضا ، ان كلمات شمويل لترن فى أذنيه موحشة مخيفة : « يمزق الله مملكة بنى اسرائيل عنك » ماذا لو استجاب الله دعاء نبيه ؟ انه كان رجلا فقيرا وأن الله أكرمه حتى صار ملكا ، وأنه قد ألف عيشة الملوك ، وانه ليحز فى نفسه أن تزول عنه أبهة الملك والسلطان .

وبقى طالوت قلقا حزينا ، فلما دخل عليه غلمانه أنكروه ، وقالوا له :

ــ روح عن نفسك يا مولانا .

فقال طالوت :

ــ ان الأفكار السود تعبث بى .

ــ ابعث الى رجل يحسن الضرب على العود ، يبدد من حولك هذه الكآبة .

فقال أحد الغلمان :

ــ أعرف غلاما يرعى الغنم ، يحسن الضرب على العود ، اذا غنى أصغى الكون ، وخشعت القلوب ، ان صوته عذب لا يحاكيه صوت فى الوجود .

ــ على بهذا الغلام ؟

فخرج العبيد يبحثون عن داود حتى اذا عثروا عليه عادوا به الى الملك ، وراح طالوت ينظر اليه ، فارتاح الى منظره ، كان أشقر جميلا ، وكانت عيناه زرقاوين ، وكان فى وجهه صفاء يعكس صفاء نفسه ، وكان قصيرا ولكنه ما كان قميئا .

وأخذ داود يضرب على العود ، وما انبعثت الأنغام حتى أحس طالوت كأنما السحر يسرى فى الهواء ، وشعر بالضيق يجلو عن صدره ، وبالنشوة تمشى فى أوصاله ، وارتفع صوت داود العذب الحنون يمجد الله :

يا رب ! ما أعظم اسمك فى الأرض
ويا لروعة جلالك فوق السموات
الأطفال والرضع يسبحون بحمدك
وطيور السماء تقدس لك
والقمر والنجوم صنع يمينك
يا رب . ما أمجد اسمك فى الأرض

واذا بطالوت يشعر بروحه تهيم فى ملكوت السماء ، انه يحس كأنما خلق خلقا جديدا ، فالراحة تلفه ، والنشوة تسكب فيه ، والطمأنينة تغشاه .

أمر طالوت بنى اسرائيل ان يستعدوا لقتال أعدائهم ، فتأهب اليهود للقتال ، وخرج فيمن خرج اخوة داود ، أما هو فبقى يرعى غنم أبيه ، وقبل أن ينطلق الجيش ، قال طالوت لجنوده :

ــ ان الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فانه منى ، الا من اغترف غرفة بيده .

وسار الجيش حتى اذا وصلوا الى النهر ، راح الرجال يشربون منه ، وعصوا أمر طالوت الا قليلا منهم ، فأمر طالوت من عصوه أن يقفلوا راجعين ، لأنه لا خير فى جنود لا يطيعون أوامر قائدهم .

وعبر طالوت والذين معه النهر ، وأصبحوا أمام جيش جالوت حاكم الفلسطينيين ، فلما رأوا جيش جالوت الجرار ، مشى الرعب فى أوصالهم ، وقالوا :

ــ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده .

فقال المؤمنون الذين يظنون أنهم ملاقوا الله :

ــ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين . وانطلق جيش طالوت حتى أصبح أمام جيش جالوت ، فدعا المؤمنون ربهم :

ــ ربنا أفرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين .

بدأت المناوشات بين الجيشين ، فكان الرجال يخــرجون

للرجال ، وبرز من بين صفوف الفلسطينيين ملكهم جالوت ، وكان طويلا جدا ، فى وجهه صرامة ، يبعث منظره الرعب فى القلوب ، ويزلزل الأرض تحت أقدام الأبطال الصناديد .

ووقف يتألق فى الشمس فى زهو ، وعلى رأسه خوذة من نحاس تتلألأ فتنبعث منها أشعة تشيع فى صفوف بنى اسرائيل رعبا شديدا ، وكان يخيل لبنى اسرائيل أن درعه النحاسية حصن منيع ، وكان فى يده رمح هائل يترجح على سنانه المنون ، وصاح فى صوت يقصف كالرعد :

— يا طالوت لم يقتل قومى وقومك ، اخرج لقتالى أو أخرج لى من شئت ، فان قتلتك كان الملك لى ، وان قتلتنى كان الملك لك .

وساد فى ميدان القتال سكون رهيب ، ولف الخوف معسكر اليهود ، فما كان أحد منهم يجرؤ على أن يفكر فى التقدم لقتال ذلك الجبار الرهيب ، وصاح طالوت فى جنوده :

— من يخرج لقتال جالوت ؟

فلم يخرج أحد ، فما كان أحد ليرمى نفسه فى أحضان الموت عن طواعية . وتقدم جالوت صوب صفوف اليهود ، فتأخروا مرعوبين ، فضحك جالوت ، وجلجلت ضحكاته ، وانبعثت الهتافات من صفوف جنوده ، وتطايرت عبارات الزراية والاستخفاف .

ومرت الأيام وجالوت يبرز كل يوم بين الصفوف يدعو الرجال للنزال ، فلا يجرؤ أحد على أن يخرج له ، فحز ذلك فى نفس طالوت ، وأراد أن يشجع الرجال على الخروج

لقتال ذلك الطاغية الذى يسخر منهم كل يوم ، فصـــاح فى جنوده :

ـــ من يقتل جالوت كرمته وزوجته ابنتى ، وجعلت بيت أبيه حرا فى اسرائيل .

فلم يغر ذلك الوعد أحدا من بنى اسرائيل ، فقد كانوا على يقين من أن من يخرج لقتال جالوت سيزف الى الموت قبل أن يزف الى ابنة طالوت .

وانقضى أربعـــون يوما على الحـــرب وجالوت يخـــرج كل يوم بين الصفوف يتـــألق فى الشمس فى زهو ، وعلى رأسه خوذته المتلألئة التى تبعث الرعب فى قلوب بنى اسرائيل ، وفى يده رمحه الهائل الذى يترجح على ســـنانه المنـــون ، ويصيح بالرجال الصـــناديد أن يخرجوا لقتاله ، فـــلا يجـــرؤ أحد على الخروج . كانت سخرية جالوت بهم مريرة ، تحـــز فى نفس ملكهم طالوت .

ترك داود غنمه ، وذهب ليرى اخوته المحاربين ، ويطمئن عليهم ، ويقدم لهم بعض الطعام ، وبلغ داود ساحة القتال فوجد الجيشين قد اصطفا للنزال ، وقد برز جالوت بين الصفوف ، وأخذ يصيح فى زراية واعتداد :

ـــ أما من أحد يريد أن يقاتلنى ؟

انكمش اليهود ، ولم يتقدم منهم أحد ، فأحس داود دماءه تثور فى عروقه ، وتتدفق حارة الى رأسه ، فما بال هؤلاء الرجال يحجمون عن قتال ذلك الرجل ، فانطلق داود من بين الصفوف كعاصفة مزمجرة ، وصاح :

ـــ أنا أقاتلك .

فهرع أخوة داود اليه ، وصاحوا به :

ــ أمجنون أنت ؟ انه جالوت .

ــ ان من هو أقوى من جالوت يؤيدنى .

ــ عد الى غنمك يا داود ، انك تقدم على الانتحار .

وتقدم طالوت منه وقال له :

ــ انك غلام وهو رجل حرب منذ صباه .

ــ دعنى يا مولاى أقتله ، ان الله معى .

فقال له طالوت :

ــ اذهب والله يرعاك .

وألبس طالوت داود ثيابه ، وجعل خوذة من نحاس على رأسه ، وألبسه درعا ، وقلده سيفا ، وهم داود بالسير ، ولكنه لم يقدر ، فنزعها داود عن نفسه ، وقال لطالوت :

ــ انى أجيد استعمال المقلاع ، فما صوبته الى شىء الا أصبته .

وتقدم داود فلما رآه جالوت غلاما صغيرا ، نظر اليه فى استخفاف وقال له :

ــ يا فتى ارجع ، فانى لا أريد أن أقتلك .

فقال داود فى حزم :

ــ لا ، بل أنا أقتلك .

وساد المعسكرين هدوء ، واشرأبت الأعناق ، وشخصت الأبصار ، وأخرج داود من جرابه حجرا ، ووضعه فى المقلاع ثم أداره وأرسل الحجر ، فأصاب به عين جالوت فسقط ، فأسرع داود اليه ، وقعد على صدره وحز رأسه ، فانبعثت أصوات الهلع من صفوف الفلسطينيين ، وانبعثت أصوات التهليل من صفوف بنى اسرائيل .

قتل داود جالوت ، فزلزل ذلك قلوب الفلسطينيين ، فما دار بخلدهم أن غلاما يقدر على ملكهم الجبار العتيد ، وبعث ذلك فى صدور بنى اسرائيل الحماسة فشددوا على أعدائهم النكير ، وأعملوا فيهم القتل حتى فروا من أمامهم مهزومين .

— ٧ —

وعاد طالوت منتصرا ، فخرج بنو اسرائيل لاستقباله ، وراحت الاسرائيليات يرقصن ويغنين فرحات مستبشرات ، وأخذن ينشدن أن الملك ضرب أعداءه ، وأن داود استحق أن يتزوج ربوات ابنة الملك ، فأحس طالوت بعض الكدر ، فما كان داود الا راعيا يرعى الغنم ، لا يليق أن يصاهر الملك ، ونسى طالوت أنه كان سقاء قبل أن يختاره الله ملكا لبنى اسرائيل !

كان داود متواضعا فى نفسه ، فلم يلتمس أن ينفذ الملك وعده ، ويزوجه ابنته ، انه ما خرج لقتال جالوت طمعا فى ربوات ، ولكنه تقدم لقتله ارضاء لاله اسرائيل .

وعين طالوت داود قائدا لجيوشه ، فكان لا يخرج الى غزوة الا عاد منها منتصرا ، واشتهر داود وعلا ذكره ، أحبه الشعب حبا جما ، ورأى الملك أن يصاهره ، فبعث اليه من قول له :

— ان الملك يوافق على أن يعطيك ابنته ميرب لو طلبتها زوجة لك .

فقال داود فى صدق :

ــ ومن أنا حتى أصاهر الملك ! ؟

وتزوجت ابنة الملك الكبرى من رجل اخر ، واستمر داود فى غزواته ، ودخوله وخروجه أمام الشعب ، فأصبح محط آمال الاسرائيليين ، وشغفت ميكال ابنة الملك به حبا ، فأرسلت الى أبيها من يذكر له أن ميكال ابنته تهوى داود ، ولا تطيق العيش بعيدة عنه ، فبعث طالوت اليه الرسل يقولون له :

ــ ان الملك يحبك وتدرك ، وانه يرى أن يزوجك ابنته ميكال اظهارا لأعجابه بك ، ومكافأة لك على الوفاء والاخلاص .

فقال داود :

ــ ومن أنا حتى أصاهر الملك ؟ !

ــ انك قائده المظفر ، الذى يسير النصر فى ركابه ، انك طالع السعد فى مملكته .

ــ اننى رجل فقير ، وليس من الهين على رجل مثلى أن يصاهر الملوك .

ــ انك رجل حرب قدير ، وبمثلك توطد العرش .

واستمر الرسل فى اقناع داود بقبول الزواج من ميكال التى تحبه ، حتى اقتنع ، وتم الزواج ففرحت ابنة الملك العاشقة ، وزاد داود بتلك المصاهرة علوا ورفعة فى أعين بنى اسرائيل .

— ٨ —

زاد داود علوا ورفعة فى عين بنى اسرائيل ، وزاد حب الشعب له ، فأحس طالوت عوامل الغيرة تتحرك فى نفسه ، وأخذت الغيرة تزداد حتى فكر طالوت فى قتل داود .

كانت تلك الفكرة تراوده وتستولى عليه وتستبد به ، وفى ذات ليلة أفضى الى يوناثان ابنه وولى عهده ، أنه سيقتل داود ، ليبقى على الملك فى أسرته ، فداود أصبح خطرا على العرش ، ان قلوب الشعب تلتف حوله ، وأن الزمن حليفه ، فاذا ما ترك حيا فلن يحول بينه وبين الملك حائل .

كان يوناثان يحب داود حبا جما ، ويقدر مواهبه ، فهرع اليه وقال له :

ــ أبى يلتمس الليلة قتلك ، فاهرب من وجهه الى الخلاء ، واختبىء فاذا أسفر الصبح عن وجهه ، خرجت أنا وأبى الى قرب مخبئك وتحادثنا عنك فتسمع ما يدور بيننا من حديث .

وهرب داود من وجه طالوت ، فلما أصبح الصبح خرج طالوت وابنه وأقبلا حتى وقفا بالقرب من مخبــأ داود ، وقال يوناثان :

ــ ليت الملك لا يخطىء فى حق عبده داود ، لأن داود لم يخطىء فى حقك ، انه ليبــذل قصارى جهــده ارضــاء لك ، لقد شهر نفسه فى يدك سيفا على أعدائك ، وأنزل بهــم

الهزائم ، انك لا ترضى أن تريق دما بريئا . تذكـــر أن الرب الذى اختارك ملكا على هذا الشعب يرقب أعمالك ، ويعرف ما تخفيه فى صدرك .

فأطرق طالوت قليلا وقد أحس ندما على ما فـــكر فيـــه ، فقال :

ـــ أقسم أن لا أمد يدى الى داود بأذى ما حييت .

وعاد طالوت وابنه الى القصر يتسامران ، وخرج داود من مكمنه وانطلق الى الملك ، فقابله باشا مرحبا .

وخرج داود لقتال الفلسطينيين ، فضربهم وانتصر عليهم ، وعاد الى بنى اسرائيل مظفرا ، فاستقبلوه استقبالا فخما رائعا ، وبلغت مسامع طالوت هتافات الجماهير ، فتحركت الغيرة فى صدره ، وراحت تعذبه وتضنيه .

وجلس داود يوما الى الملك يشـــجيه بصـــوته الحنون ، وكان الملك مطرقا وفى يده رمح ، لم يكن يصغى الى الصـــوت العجيب الذى ينفث السـحر ، بل كان يصغى الى شـــيطانه الذى كان يوسوس له أن يقتل من ســـلبه حب شعبه ، ورفع الرمح وطعن داود ، ولكنه أخطـــأه ، فنهض داود وفـــر من وجهه .

هرب داود الى بيته ، وذهب الى ميـــكال ، يقص عليها خبره ، فقالت له ميكال :

ـــ اننى أعرف أبى ، اهرب بنفسك الليلة ، لأنه سيبعث فى اثرك من يقتلك .

وهم داود بالخروج ، فقالت له ميكال :

ـــ لا تخرج من الباب ، أن عبيد أبى يرصدونك ، ويرقبون خروجك ليقتلوك ، تعال .

وساعدته على الخروج من كوة فى الحائط ، فانطلق هاربا من الموت الذى ينتظره عند الباب .

ووضعت ميكال فى فراش داود تمثالا ، وغطته بغطائه ، لتخدع الرجال الواقفين بالباب يتجسسون . وأرسلت الشمس أشعتها الأولى ، فسمعت ميكال طرقا على الباب فذهبت لتحدث عبيد أبيها ، فلما انفرج الباب قالت للرسل الذين أرسلهم الملك :

— ماذا تبغون ؟

— ان مولانا يطلب داود .

فقالت ميكال فى هدوء :

— ان زوجى مريض .

وعاد الرسل الى الملك ، فأمرهم أن يأتوا اليه بداود فى فراشه ، وقفل الرسل عائدين ، وما دخلوا حجرة داود حتى وجدوا التمثال فى استقبالهم .

واشتد غضب طالوت ، وصاح بابنته :

— لماذا أطلقت عدوى حتى فر من يدى .

فانبرت الزوجة المحبة تدافع عن زوجها ، ولكن ذلك الدفاع لم يذهب بغضب الملك ، فبعث رسله ينقبون عن داود .

وجاء اليه رسله يخبرونه بمكانه ، فخرج اليه فى جنوده ، وما أن وصل الى حيث كان حتى وجده والنبى شمويل يصليان لله فى خشوع ، ويشع من المكان نور الهى عجيب ، وتطوف به نفحات ربانية تغمر بالايمان القلوب ، فانقشع الحقد عن صدره ، وهبت عليه نسائم من الرحمة ، وتذكر ما فعله الله له ، وانه أكرمه وجعله ملكا على شعبه ، فخلع ثيابه ، وذهب يصلى لله ، يدعوه فى ذلة وانكسار .

- ٩ -

قابل داود يوناثان وقال :

ــ ماذا جنيت حتى يلتمس أبوك قتلى ؟

فقال له يوناثان :

ــ سامحك الله ، ان أبى قد عفا عنك .

ــ اننى أحس الشر يحيط بى من كل مكان .

ــ ان أبى لا يفعل شيئا الا أخبرنى به ، فلو كان ينوى قتلك حدثنى عن ذلك .

ــ لقد علم أبوك حبك لى ، فأخفى عنك عزمه .

فأطرق يوناثان قليلا ثم قال :

ــ وماذا ترى ؟

ــ ان غدا أول الشهر ، وان على أن أشارك الملك فى مجلسه فى الوليمة التى يعدها كل شهر ، ولكننى أرى أن أتخلف عن هذه الوليمة ، فاذا سأل أبوك عنى ، فقل له : ان داود استأذننى فى الذهاب الى بيت لحم ، ليقدم قربانا الى الرب ، فاذا قال الملك : « حسنا » ، كان ذلك دليل الرضا والسلام ، أما اذا غضب وثار كان ذلك آية على ما يضمر لى من شر .

واتفقا على أن يختبىء داود حتى يكشف يوناثان خبيئة نفس أبيه ، ويخبره بما يضمر له . قال داود لصديقه :

ـــ أخشى اذا جئت الى أن يبعث الملك رجاله فى أثرك يتعقبونك ليهتدوا الى مكانك .

فقال يوناثان وهو يفكر :

ـــ فماذا نفعل ؟

فقال داود وهو يضغط على يد صديقه فى ولاء : والله لا أدرى .

فقال يوناثان :

ـــ اخرج مع غلام من غلمانى فاذا كان الملك راضيا عنك ، فسأرمى سهامى وآمر الغلام أن يلتقط السهام القريبة منه ، أما اذا كان الملك حاقدا عليك ، فآمر غلامى أن يلتقط السهام التى تجاوزته .

وانطلق داود يختبىء ، وذهب يوناثان الى القصر ، ووافى ميعاد الوليمة ، فجلس الملك فى صدرها ، وجلس كل فى مكانه ، وبقى مقعد داود خاليا ، ومر اليوم الأول ، ولم يقل الملك شيئا ، وجاء اليوم الثانى ، وجلس كل فى مكانه ، وبقى مقعد داود خاليا ، فقال الملك :

ـــ أين داود ؟ غاب اليوم ، وغاب الأمس .

فقال يوناثان :

ـــ التمس داود منى أن أسمح له بالذهاب الى بيت لحم ، ليقدم الى الرب قربانا . وسألنى أن يذهب ليرى اخوته ، فأذنت له .

فغضب طالوت غضبا شديدا ، وصاح بابنه :

ـــ يا أحمق ، الا ترى أنه ما دام داود يمشى على وجه الأرض ، فلن تتربع يوما على عرشك ؟ ! ابعث من يأتى به ، لأقتله .

ـــ كيف تقتله ولم يفعل ما يوجب القتل ؟ حرام أن تهدر دما بريئا .

ـــ اننى أقتله من أجلك .

ـــ لا أرضى أن تسفك الدماء باسمى .

ـــ عزيز على أن أرى الملك يفلت من بين أصابعك ، وأنا أنظر لا أفعل شيئا .

ـــ أين ذهبت حكمتك .. أنسيت أن الله يعطى الملك من يشاء ؟

ـــ ان حكمتى تهيب بى أن أقتله ، اذا تربع على العرش ، فلن يتركك تمشى فى الأرض يوما ، سيقتلك ويقتل أسرتك جميعا ، فما كان لملك جديد أن يترك أحدا دون ذبح من أسرة من سبقه ، اننى سأقتله لأحييكم جميعا .

فقال يوناثان وهو يغادر المكان :

ـــ لن أسمح بذلك ما دام فى عرق ينبض .

وانقضت الليلة ، وبزغت الشمس تريق ضياءها على الكون ، وخرج يوناثان وغلام صغير يحمل قوسه وسهامه ، وما ان بلغ مكان اختفاء داود حتى تناول القوس ، ووضع فيه السهام ، وأطلقها بعيدا ، وصاح بغلامه :

ـــ التقط السهام التى تجاوزتك ، أسرع ، اركض ، لا تقف .

وفهمها داود ، فخرج على حذر ، وانطلق وهو يترقب ، فالملك حاقد عليه يريد اغتياله ، لقد أصبح طريد القانون ، فراح يحث الخطا هاربا بحياته .

— ١٠ —

أصبح داود طريد القانون ، انه عرضة للقبض عليه فى أية لحظة ، وتنفيذ القتـــل فيه ، وان من يبـــدى له صداقته يعرض نفسه للمهالك ، واستمر فى فراره حتى وصل الى نوب مدينة الكهان ، ودخل على أخيالك الكاهن ، فاضطرب الكاهن لما رأى داود قد دخل عليه وحيدا ، فما اعتاد أن يراه الا فى جنده وأبهته ، وأوجس خيفة ، فقال له فى ريب :

ـــ لماذا أنت وحدك ؟

فقال داود فى همس كأنما يفضى الى الكاهن بسر :

ـــ أمرنى الملك أمرا وأوصانى الا يعلم به أحد ، لذلك خرجت وحدى ، حتى لا يفطن أحد الى خروجى .

وتلفت داود ثم قال :

ـــ أيمكنك أن تمدنى بطعام ؟

ـــ ليس عندى الا الخبز المقدس .

وقدم له من الخبز الموضوع على مذبح يهوذا ، فلما تناول الخبز قال :

ـــ أيمكنك أن تمدنى بسلاح ، لأننى خرجت على عجل دون سيف أو رمح ؟

فقال كاهن نوب :

ـــ ليس عندى الا سيف جالوت الذى قتلته ، فان رأيت أن تأخذه فخذه .

فقال داود :
ـــ على به ، انه سيف بتار .
وخرج داود لينضم الى أهله ، وما درى أن أحد خدم طالوت كان فى المعبد يسترق السمع ، ويمـــد عليه حركاته وسكناته .
وانضم الى داود أهله ورجاله والساخطون الثائرون على الحكم ، وراح الرجال يتقاطرون عليه حتى اشـــتد ساعده ، واحتمى بالجبال ، فلما بلغ طالوت خروج الرجال الى غريمه ، وقف فى رجاله وقال لهم :
ـــ ما لقلوبكم قد تغيرت على ، وما بالكم تخفون عنى أن ابنى قد تعاهد مع داود ، ما بال أفئدتكم قد تحجرت ، أيمنحكم داود جميعا حقولا وكروما ، وينصبكم رؤساء على الجند ؟ ! ماذا فعل لكم داود حتى أصبحت قلوبكم معه .
فتقدم الخادم الذى رآه فى المعبد ، وقال فى هدوء :
ـــ رأيت داود فى نوب يتحدث مع أخيالك ، وقد أعطاه الكاهن مئونة وسيف جالوت .
فبعث الملك من يحضر له أخيالك وجميع أهل بيته ، فلما مثلوا أمامه ، قال الملك للكاهن فى غضب :
ـــ ما الذى جعلك تتآمر على ، وتتحالف مع عدوى ؟
ـــ حاشاى أن أفعل ذلك يا مولاى .
ـــ منحت داود طعـــاما ، وأعطيتـــه ســـيفا ، ونفحتـــه ببركتك .
ـــ من من رعاياك أكثر اخلاصـــا لك من داود ! انه زوج ابنتك .
ـــ انه عدوى .

ـــ ما كنت أعرف يا مولاى شيئا من ذلك .

ولم يصغ طالوت اليه ، وقال فى غضب :

ـــ فلتمت أنت وأهل بيتك .

وصاح طالوت فى خدمه :

ـــ اقتلوا هؤلاء الذين تآمروا على الملك مع داود .

وقف الخدم مشدوهين ، فما كانوا يظنون أن يأمر طالوت بقتل رهبان الرب ، وفطن طالوت الى ترددهم ، فصاح بهم :

ـــ اقتلوهم .

ولكن أحدا من الخدم لم يتقدم ، فصـــاح فى الخادم الذى أفشى سر داود :

ـــ اقتلهم أنت .

وتقدم الرجل يقتل أخيالك وأهل بيته ، ولم يشف ذلك الدم المسفوك غليل الملك ، فبعث جنوده الى نوب مدينة الرهبان ، فيضربوا أهلها بالسيف ، فســقط الرجال والنســاء والأطفال صرعى ، ولم ينج الا غلام انطلق يخبر داود بما حل بنوب : مدينة الرهبان .

— ٢١ —

وترامى الى داود أن الفلسطينيين قد أغاروا على قعيلة ، الواقعـــة على الحدود بين أراضى اسرائيـــل والفلســـطينيين ، فقال لرجاله أن يتأهبوا للخروج لقتال الفلسطينيين ، فقال له رجاله :

ـــ اننا ها هنا خائفون نترقب ، نخشى أن يهبط علينا طالوت

وجنوده ، فكيف تريد أن نذهب الى قتال الجبارين ؟
فقال داود لرجاله :
ــ سنخرج للقتال ، وسننتصر على أعداء اسرائيل .
فقال الرجال فى اضطراب :
ــ كيف نغادر الحصون لنذهب الى مدينة لها أبواب وأسرار ؟
ــ أوحى الى أننا منتصرون .
وخرج داود وضرب أعداءه ، وساق أمامه الغنائم والأسلاب ، وبلغ طالوت أن داود ورجاله الثائرين قد دخلوا قعيلة ، فأيقن أنهم قد وقعوا فى يده ، فما أيسر أن يحاصرهم فى مدينة ذات أسوار وأبواب ، ولكنه ما أن بلغ المدينة حتى ألفى داود ورجاله قد خرجوا منها هاربين .
واحتمى داود فى الغاب ، واذا برجل غريب قادم ، فامتدت الأعناق ، وشخصت الأبصار ، واذا بصائح يصيح .
ــ انه يوناثان .
فهرع داود للقاء صديقه الحميم ، وتعانق الصديقان ، وقال يوناثان :
ــ لا تخف ، ان يد أبى لن تصل اليك ، وستصبح ملك اسرائيل ، وسأصبح خليفتك .
وتعاهد الصديقان أمام يهوذا أن يخلص كل منهما لأخيه ، ثم قفل يوناثان عائدا الى القصر ، وبقى داود هائما فى الغاب .
كان داود ورجاله يسكنون الكهوف ، وفى ذات يوم خرج طالوت فى ثلاثة آلاف رجل يطلب داود ، واستمر فى تنقيبه حتى بلغ الكهوف ، وأحس التعب يمشى فى أوصاله ، فدخل الى كهف ونام .

كان داود ورجاله فى ذلك الكهف ، فلما رأوا طالوت نائما قالوا لداود :

ـــ هذا هو طالوت قد ساقه الله اليك ، قم فاقتله .

فقال داود فى اخلاص :

ـــ حاش أن أقتل رجلا اختاره الله ملكا لبنى اسرائيل .

وهم الرجال بالانقضاض على ملكهم ، فقال لهم زاجرا :

ـــ حذار أن يمسه أحدكم بسوء .

وسار داود على حذر حتى اقترب من طالوت الغارق فى سباته ، قطع طرف جبته ، ثم عاد الى مكانه ينتظر اســـتيقاظ الملك .

قام طالوت من رقاده ،و انطلق صوب باب الكهف ، وما ان خرج منه ، حتى مس أذنيه صوت يناديه :

ـــ مولاى ! مولاى .

فقال طالوت فى عجب :

ـــ هذا صوت داود . أأنت داود ؟

ـــ أنا داود عبدك المخلص ، لماذا تلقى السمع يا مولاى الى من يوسوسون لك أننى أبغى أن أمد لك يد الأذى ، ان الشر يا مولاى لا يصدر الا عن الأشرار ، اننى لا أحمل لك الا الحب والاخلاص ، لو كنت أريد بك شرا ، فقـــد كنت اليـــوم تحت رحمتى ، فما كان أيسر أن أقتلك ، ولكننى ما كنت أمد يدى الى من اختاره الله ملكا علينا . انظر يا سيدى الى طرف جبتك ، قطعته لأدلك على ولائى ، كانت روحك تتأرجح على طـــرف سيفى ، فوهبتها لك ، وأنت تقطع القفار ، وتتجشم المتاعب لتسلبنى روحى وما أسأت اليك . انى أتركك لله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين .

فانهمرت دموع طالوت وقال :

ـــ أنت أبر منى يا داود ، ظفرت بى وعفوت ، قابلت الاساءة بالاحسان . يا للروح الخبيثة التى حلت بى ، كانت تهتف بى أن أقتل داود ، ولكن ماذا فعل داود ؟

اننى أسأت اليك يا ولدى ، وان الغضب أعمانى حتى قتلت رهبان الرب دون ذنب ارتكبوه . سأبتهل الى الله ، وادعوه عله أن يغفر لى ذنبى .

ووقع فى قلب طالوت التوبة ، وندم وأقبل على البكاء وكان كل ليلة يخرج يبكى وينادى :

ـــ أنشد الله عبداً علم أن لى توبة الا أخبرنى بها .

فقال له قائل :

ـــ هل تدرى ما مثلك ، انما مثلك مثل ملك نـــزل قرية عشاء ، فصاح الديك فتطير منه ، فقال : لا تتركوا فى القرية ديكا الا ذبحتموه ، فلما أراد أن ينام ، قال : اذا صاح الديك فأيقظونا حتى ندلج ، فقالوا له : وهل تركت ديكا يسمع صوته ، وأنت هل تركت عالما فى الأرض تسأله هل لك من توبة ؟

فازداد حزنه ، وانطلق يسح دموع الندم .

وخرجت جحافل الفلسطينيين لقتال اسرائيل ، وتأهب طالوت وجنوده للحرب ، ودارت المعركة رهيبة قاسية ، طالوت يقاتل فى حرارة ، ليكفر عن ذنبه ، انه كان متأهبا بيجود بدمه ، لعل الله يغفر له دماء الرهبان الزكية ، التى سالت كالأنهار فى نوب .

وانخلعت قلوب بنى اسرائيل أمام هجوم الفلسطينيين الرهيب ، فولوا مدبرين ، وثبت طالوت وأبناؤه للقتال ، وراح يوناثان يحارب فى قوة ويأس ، يذب عن أبيه .

سقط يوناثان صريعا ، فأحس طالوت كأن خناجر تمزق فؤاده ، وسقط أبناؤه حوله يخبطون فى دمائهم ، فراح يئن كوحش جريح ، وأصابه سهم فى عنقه ، فسال دمه غزيرا ، فالتفت الى حامل سيفه وقال له :

ــ استل سيفك وأطعنى به ، فانه أكرم لى أن أموت بسيفك من أن أموت بسيوف هؤلاء الأوغاد .

فقال له الرجل وقد أتسعت عيناه رعبا :

ــ مولاى ، حاشاى أن أفعل ما يؤذيك .

فصاح به طالوت :

ــ اضرب .

فقال الرجل فى فزع :

ــ لا أستطيع .

فأخذ طالوت منه السيف ، وثبته فى الأرض ، وجعل

طرفه المدبب فى قلبه ، ثم ألقى بنفسه عليه ، فلفظ نفسه الأخير ، ورأى حامل السيف ما حل بمولاه ، فألقى نفسه على سيفه ، فسقط الى جواره يشاركه الممات .

وجاء الفلسطينيون يسلبون القتلى ، فوجدوا طالوت صريعا ، فحزوا رأسه ، ونزعوا سلاحه ، وراحوا يطوفون بالرأس فى الأسواق ، وهم يتصايحون فرحا ، وفى ذلك الوقت كان رجل من الاسرائيليين يفر مذعورا كأنما يقتفى أثره الشياطين .

أقبل الرجل وقد شق ثيابه ، يحثو التراب على رأسه ، فهرع داود اليه وقال له :

— من أين أنت؟ ؟

— هربت من عسكر اسرائيل .

— كيف خلفتهم ؟

— فر الناس من المعركة مهزومين ، وقد سقط الرجال قتلى ، وصرع طالوت وابنه يوناثان .

وشعر داود بالحزن يعتصره ، وفاضت فى نفسه مشاعر الحب للملك الراحل ، وليوناثان الصديق ، فراح يندبهما فى صوت حزين :

مجدك يا اسرائيل صريع على شوامخك .
كيف سقط الجبابرة !
لا تذكروا هذا النبأ فى جت .
ولا تذيعوه فى شوارع أشقلون .
لئلا تفرح الفلسطينيات .
لئلا تشمت بنات الأجلاف .
يا جبال جبلوع .

لا تدعى الطلل ولا المطر تتساقط عليك .
ولا المراعى تنبت على سفوحك .
لأن هناك ألقى مجن الجبابرة .
مجن طالوت دون أن يمسح بالدهن المقدس .
ان الحبيبين طالوت ويوناثان لم يفترقا فى حياتهما .
وها هو ذا الموت يجمع بينهما .
كانا أخف من النسور ، وأشد من الليوث .
يا بنات اسرائيل ابكين على طالوت بالدمع الهتون .
طالوت الذى دثركن فى الديباج .
وجعلكن ترفلن فى ثياب موشاة بالذهب . .
كيف سقط الجبابرة فى وسط المعمعة .
يا يوناثان ، يا من قتلت عل .
ان حزنى عميق عليك يا يوناثان .
كنت لى حبيبا .
وكان حبك لى عجيبا .
يفوق حب النساء .
كيف سقط الجبابرة .
وتكسرت أدوات القتال ؟ !

— ١٣ —

السنون تمر ، وداود فى عاصمة ملكه حبرون يحكم عشيرته ، وابن طالوت على بنى اسرائيل ، وفى ذات يوم جاء الناعى ينعى اليه ابن طالوت ، فعلم داود أن موعد تنصيبه ملكا على اسرائيل كلها قد حان .

وجاء أكابر بنى اسرائيل اليه يدعونه ، ليكون ملكا على كل الأرض ، ونودى به على اسرائيل ، ولما كانت حبرون لا تصح لتكون عاصمة للمملكة كلها ، خرج داود وزوجاته ورجاله وجنوده وانطلقوا الى حصن أورشليم .

وأوحى الله اليه :

ــ يا داود ، انا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد ، بما نسوا يوم الحساب .

وقسم داود الدهر ثلاثة أيام ، يوما يقضى فيه بين الناس ، ويوما يخلو فيه لعبادة ربه ، ويوما يخلو فيه لنسائه ، وكان له تسع وتسعون امرأة ، وفى ذات يوم خلا بنفسه يتعبد ، فراح يقرأ الصحف الأولى فوجد فيها فضل ابراهيم واسحاق ويعقوب . فرفع وجهه الى السماء وقال :

ــ يارب أرى الخير كله قد ذهب به آبائى الذين كانوا قبلى ، فأعطنى مثل ما أعطيتهم ، وافعل بى مثل ما فعلت بهم :

ــ ان آباءك ابتلوا ببلايا لم تبتل بها ، ابتلى ابراهيم بذبح ابنه ، وابتلى اسحاق بذهاب بصره ، وابتلى يعقوب بحزنه على ابنه يوسف ، وانك لم تبتل من ذلك بشىء .

فقال داود فى ابتهال :

ــ يا رب ابتلنى بمثل ما ابتليتهم به ، وأعطنى مثل ما أعطيتهم .

واستأنف داود حياته ، وخرج يوما الى سطح القصر ، فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها ، فرأى امرأة من أجمل النساء خلقا ، فحانت منها التفاتة ، فأبصرته ، فألقته

شعرها فاستترت به ، فزاده ذلك فيها رغبة ، وشغل داود بها ، وسأل عنها ، فعلم أنها زوجة أوريا الحثى ، وهو قائد من قواده ، وراحت صورة المرأة الفتانة تلح على مخيلته ، وهو يحاول أن يطردها ، وأخذ يشغل نفسه بالعبادة ، ولكن هيهات انه غارق فى بحر لجى من التصورات التى تدور حول المرأة الجميلة التى انطبعت فى حسه .

وتوافدت الأفكار الى رأسه متدفقة متلاطمة ، وهمس فى نفسه هامس : لو قتل ذلك القائد فى معركة من المعارك ، لأصبحت المرأة له . واستولت عليه تلك الفكرة ، واستبدت به ، فبعث الى صاحب المسلحة التى يعمل بها أوريا ، وأمره أن يبعثه لقتال عدو شديد البأس .

خرج أويا للحرب ، ودار القتال ، واشتدت وطأته ، وحمى وطيسه ، وانجلت المعركة عن انتصار أوريا ، وعودته منصورا ، فبعث داود الى صاحب المسلحة أن ابعثه الى عدو آخر اشد بأسا ، فخرج أوريا للحرب وما هى الا أيام حتى عاد منتصرا ، فكتب داود الى صاحب المسلحة أن ابعثه ليفتح حصنا من حصون الأعداء ، فذهب أوريا الى الحصن المتين وعند أسواره سقط مقتولا .

بلغ داود نبأ مصرع أوريا ، فأخذ زوجته التى فتنته وتزوجها ، ليعيد الى نفسه الهدوء والاطمئنان !

عادت الطمأنينة الى داود بعد أن أكمل زوجاته مئة ، وعادت حياته الى ما كانت عليه ، ولكن ذلك الهدوء لم يدم طويلا ، ففى يوم عبادته دخل الى محرابه يمجد الله بصوته الذى تخشع له الأفئدة والطيور والوحوش فى الغاب وجاء رجلان يلتمسان مقابلته ، فقال لهما الحراس :

— انه لا يستطيع أن يقابلكما اليوم ، لأنه فى يوم عبادته .

فانطلق الرجلان الى السور وتسلقاه ، ودخلا على داود وهو غارق فى عبادته ، فما شعر الا وهما جالسان بين يديه ، فخاف منهما ، فقالا له :

— لا تخف ، نحن خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق .

قال لهما وقد أفرخ روعه :

— قصا على قصتكما .

فقال أحدهما :

— ان هذا أخى ، له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة ، فهو يريد أن يأخذ نعجتى فيكمل بها نعاجه مائة .

فقال داود للآخر :

— ما تقول ؟

— ان لى تسعا وتسعين نعجة ، ولأخى هذا نعجة واحدة ، فأنا أريد آخذها منه ، فأكمل بها نعاجى مائة .

— وهو كاره ؟

ـــ وهو كاره .

ـــ اذا لا ندعك وذاك .

ـــ ما أنت على ذلك بقادر .

ـــ فان ذهبت تروم ذلك ، ضربنا منك هذا وهذا .

واشار الى طرف الأنف والجبهة ، فقال الرجل :

ـــ يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا ، فان لك تسعا وتسعين امرأة ، ولم يكن لأوريا الا امرأة واحدة ، فلم تزل به تعرضه للقتل حتى قتل ، وتزوجت امرأته .

فنظر داود فلم ير شيئا ، فعرف أنهما ملكان أرسلا ليفهماه ما قد وقع فيه وما ابتلى به ، فخر ساجدا يبكى وينتحب ، ويقول فى حزن .

ـــ زل داود زلة هى أبعد مما بين المشرق والمغرب ، رب ان لم ترحم ضعف داود ، وتغفر له ذنبه ، جعلت ذنبه حديثا فى الخلائق من بعده .

ـ ١٥ ـ

اشتد حزن داود ، وشفه الأسى ، وراح ضـــميره يعذبه ويضنيه ، وفرائصه ترتعد رهبة من خشية الله ، فكان يخـــلو بنفسه فى محرابه ، ويخر ساجدا لله ، يدعوه ويبتهل اليه أن يرحم ضعفه ، وأخذ ينادى ربه وقد زلزلت نفسه :

سبحان الملك الأعظم الذى يبتلى الخلائق بما يشاء

سبحان خالق النور ، ســـبحان الحائل بين القلوب

الهى ! خليت بينى وبين نفسى ، فزلت بى قدمى .

الهى ! تبكى الثكلى على فلذة كبدها اذا فقدته ،
ويبكى داود على خطيئته .
سبحان خالق النور ، يغسل الثوب فيذهب درنه
أما خطيئتى فلاصقة بى ، لا تذهب عنى .
الهى ! الويل لداود اذا كشف عنه الغطاء فيقال هذا
الخاطىء !
الهى ! بأى عين أنظر اليك يوم القيامة وانما ينظر
الظالمون من طرف خفى .
الهى ! كانت نجوم السماء تؤنسنى ، وها هى ذى
خطيئتى تكتنفنى .
الهى ! أنا الذى لا أطيق وعدك ، فكيف أطيق وعيدك !
الهى ! الويل لداود من الذنب العظيم الذي أصاب .
الهى ! رق القلب وجمدت العينان من خشية اللقاء .
سبحان خالق النور ! اللهم برحمتك أغفر لى ذنوبى
ولا تباعدنى من رحمتك لهوانى ، فانك أرحم الراحمين .
الهى ! انى أعوذ بك ، وبنور وجهك الكريم من ذنوبى
التى أوبقتنى .
الهى ! فررت اليك من ذنوبى ، واعترفت بخطيئتى ،
فلا تجعلنى من القانطين ، ولا تخزنى يوم يبعثون .

وظل داود يبكى خطيئته ، ويدعو الله أن يغفر له ذنبه ، ويتوب عليه ، وكان لا يرفع رأسه الى السماء حياء ! وكان الناس يعودونه فيظنون أنه مريض ، وما به الا الحياء والخوف .

ومرت الأيام والليالى وهو فى سجوده ، لا يرقأ له

دمع . وفى ليلة هادئة نام الناس ، وبقى داود وحده يناجى ربـــه .

ـــ يا رب ، قرح الجبين ، وجمدت العين ، داود لم يرجع اليه فى خطيئته شيء .

ونحب نحبة شقت سكون الليل ، فأوحى الله اليه :

ـــ يا داود ارفع رأسك ، فقد غفر الله لك .

ـ ١٦ ـ

ورزق داود بسليمان من بتشيع ، زوجة أوريا ، ومرت السنوات وداود يغزو أعداءه ، وينزل بهم الهزائم القاصمة ، وكبر داود وشاخ ، كان يجلس للناس يحكم بينهم ، وفى ذات يوم جاء رجلان يختصمان ، قال أحدهما :

ـــ ان غنم هذا الرجل دخلت حقلى ، أكلت ما فيـــه من الزرع .

وسأل داود صاحب الغنم :

ـــ هل فعلت غنمك هذا ؟

ـــ نعم .

قال داود :

ـــ يأخذ صاحب الحقل هذه الغنم ، مقابل زرعه الذى فسد .

وكان سليمان حاضرا ، وكان غلاما فى الثانية عشرة من عمره ، فقال :

ـ غير هذا يا نبى الله .

فالتفت داود الى ابنه وقال له :

ـ ماذا ترى يا سليمان ؟

ـ يأخذ صاحب الغنم الحقل ليصلحه ، ويأخذ صاحب الحقل الغنم ، لينتفع بلبنها ونتاجها ، حتى اذا عاد الحقل كما كان ، أخذ صاحب الحقل حقله ، وأخذ صاحب الغنم غنمه .

وتهللت أسارير داود لحكمة ابنه ، وقضى بما قاله ، ولما انفض مجلسه ، ودخل الى أهله ، وأقبلت بتشبيع اليه ، أخبرها أنه سينصب ابنها سليمان ملكا من بعده .

وفكر أدونيا بن داود فى أنه وارث العرش بعد أبيه ، فجهز عجلات وفرسانا ورجالا يجرون أمامه ، ورأى أن أباه قد شاخ ، ولم يعد يصلح للملك ، فعزم على أن ينادى بنفسه ملكا على اسرائيل ، فأعد وليمة فاخرة ، دعا اليها جميع اخوته ما عدا سليمان ودعا خدام الملك ، ليبايعوه بالملك فى ذلك الحفل .

ودخل حكيم من حكماء القصر على بتشبيع أم سليمان ، وقال لها :

ـ أما بلغك ما فعله اليوم أدونيا ؟

فقالت فى لهفة :

ـ ماذا فعل ؟

ـ دعا اخوته الى وليمة ، لينصب نفسه ملكا على اسرائيل ، دون أن يعلم داود .

ـ فماذا أفعل الآن .

ـــ أدخلى الى داود ، وقولى له : أما وعدتنى أن يكون سليمان ملكا من بعدك ؟ فما الذى جعل أدونيا يطلب الملك لنفسه ؟ وفيما أنت تحادثين الملك أدخل أنا لأشد أزرك .

ودخلت بتشيع على داود ، وقالت له :

ـــ وعدتنى أن يخلفك ابنى سليمان على عرشك ، ولكن ها هو ذا أدونيا يذبح الذبائح ، ويمد الموائد ويدعو جميع اخوته ليبايعوه بالملك دون علمك ، فماذا أنت فاعل ، ان بنى اسرائيل يتطلعون اليك .

ودخل حكيم القصر وقال :

ـــ أأنت أمرت أن يكون أدونيا ملكا من بعدك ؟

ـــ ادع لى الكاهن ، وادع لى رجالى .

ودخل الكاهن ورجال داود المخلصون ، فقال لهم داود :

ـــ أركبوا سليمان على بغلتى ، وانفخوا فى الأبواق واهتفوا :

يحيا الملك سليمان .لقد نصبته ملكا على يهوذا واسرائيل .

وركب سليمان بغلة داود ، ونفخ فى الأبواق ، فجاء الناس من كل فج عميق يهتفون بحياة الملك الجديد .

وصكت الهتافات آذان من دعاهم أدونيا الى الوليمة التى جهزها لينادى بنفسه ملكا على اسرائيل ، فارتعدت فرائصهم ، وانتشر الخوف فى أجوافهم ، فتفرقوا ذعرا ، ودبت الرهبة فى قلب أدونيا ، وخشى أن يفتك سليمان به ، ففر الى المعبد ولاذ به ، وقال : لن أبرح حتى يأتينى الأمان من أخى .

وأمنه سليمان ، فوفد عليه يعرض ولاءه .

وصعد سليمان الى عرش أبيه ، وتربع فى دست الملك ، فخر داود ساجدا فى فراشه وقال :

ـ لك الحمد يارب على ما أوليتنى من نعم ، الهى اغفر لى عجزى الآن بيانى قد قصر عن أن يفصح عما يجيش به صدرى . لك الحمد يا رب ، اذ وهبت لى اليوم من يجلس على عرشى ، وعيناى تبصران .

سُليمان وَ بلقيس

- ١ -

الناس يتنفسون فى حذر ، ويتلفتون فى ذعر ، ويتهامسون فى خوف ، هجرت الطمأنينة سبأ بعد أن سادها الطغيان ، ونزل بها الرعب والفزع . ان زلة لسان ، أو اشارة امتعاض ، أو غمغمة استياء . كافية لاطاحة رءوس ، فالذى استلب الملك من ملكهم طاغية قد قلبه من الصخر . كان قاسيا لا يعرف الرحمة ، فأذاق الشعب صنوف العذاب ، وسقاه الذل ، وجرعه الهوان ، انه يلغ فى الدماء ولوغا ، وتستريح نفسه لأنات الألم ، وتأوهات الشقاء .

خيم على سبأ سحائب داكنة من الذل والخنوع ، وأحست بلقيس ما يقاسى الناس من كرب بعد موت أبيها ، فتألمت ، وزاد أساها على مر الأيام ، فانقلبت حقدا على الطاغية الغشوم . فما كان الشعب الوديع يستحق كل ذلك الاضطهاد .

أطرقت مهمومة تفكر فيما تعمله لذلك الشعب الذى رماه سوء حظه بحاكم مستبد ظالم لا يطاق ، فالتمعت فى رأسها فكرة ، فبيتت العزم على انفاذها ، لعلها تريح الناس من ذلك الطاغية الجائر ، وتعيد الى القلوب الطمأنينة ، والى سبأ العظيمة الأمن والاستقرار .

تزينت وأرخت شعرها السبط الناعم الأسود ، فتهدل رائعا ، وتحلت بأفخر اللآلىء وأكرم الأحجار ، وأبرزت الفتنة ، فكانت آية من آيات الحسن والجمال ، وانطلقت الى قصر الطاغية تسبى العقول ، وتلعب بالأفئدة ، وتأخذ بالألباب .

ودخلت على الملك فلان القلب القاسى ، فخفق خفقات ، والتمعت العينان ببريق غريب ، ورنا اليها فى حنان ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة فضحت سر الفؤاد . ودنت منه ، فأجلسها الى جواره ، وأقبل عليها يحدثها فى اشتياق ، فحدثته فى لين ، ونظرت اليه فى دلال ، فهفت نفسه اليها ، وما قامت عنه حتى كان أسير العينين المتكسرتين فى اغراء ، والروح الهفهافة ، والقد الحلو المياس .

وترادفت زياراتها للملك ، فهام بها حبا ، كان اذا خلا بنفسه يشاغله طيفها ، فتلوح له فى جاذبيتها وفتنتها ، فيخفق قلبه ، ويطرق ليستعيد حديثها ، فيحس سعادة . كان حديثها يدغدغ حواسه ، وطلعتها تزلزل كيانه ، ونظرة منها تدثره بالنشوة ، فعزم على أن يتزوجها ، لتشاركه فى ملكه ، وتملأ قصره حبورا .

وأوفد اليها رسله ، فاستجابت لطلبه ، وأقيمت فى سبأ الأفراح ، وتأهب القصر لاستقبال بلقيس ، الأميرة الجميلة ، ابنة الملك الراحل المحبوب .

ووفدت بلقيس فى ثياب العرس ، فكانت أروع من الزهر ، وأندى من الفجر ، وأحلى من الربيع ، فهرع اليها الملك وفى صدره لهفة ، وفى عينيه حب ، وانطلقا الى صدر المكان لتجرى المراسيم .

وانقضت الحفلات ، فنهض الزوجان الى غرفتهما وانصرف المدعوون ، وساد القصر هدوء . ورنا الملك الى بلقيس الجميلة ، فتحركت مشاعره ، وهم بالدنو منها ، فقدمت اليه كأس خمر فتجرعها ، فانتشت روحه ، واقترب منها فقدمت له كأسا أخرى فعبها ، وراحت تقدم له الكئوس حتى سكر ، فزحف اليها وهو مخمور ، وفتح ذراعيه ليضمها اليه ، فاستلت من صدرها خنجرا وغيبته فى صدره ، فارتمى فى الفراش يخبط فى دمه ، وقد طوقه الموت بذراعيه ، فلفظ أنفاسه التى كان يرجو أن تتردد حارة على وجنات عروسه الحسناء !

وسارت بلقيس فى ردهات القصر ثابتة الخطو ، حتى اذا بلغت العرش ألفت أعوانها يرصدون قدومها فى قلق ، فألقت اليهم برأس الطاغية ، واتجهت الى سرير الملك ، وجلست شامخة الرأس ، فانطلق أعوانها خفافا ليزفوا الى الشعب النبأ العظيم ، نبأ تخليص سبأ من سلطان الجور ، واعتلاء بلقيس عرش البلاد .

— ٢ —

خرج جيش جرار يضرب فى القفار ، حتى اذا نال منه التعب ، رأى أرضا بيضاء حسنة تزهو بخضرتها ، أحب النزول بها ، فحط الرحال ، والتمس الناس الماء فلم يجدوه ، فتلفت سليمان يبحث عن الهدهد ، وكان دليله على الماء ، فلم يجده ، فقال فى دهش :

ـــ مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟

وطلب عريف الطير ، فأقبل النسر ، فقال له سليمان :

ـــ أين الهدهد ؟

ـــ أصلح الله الملك ، لا أدرى أين هو ؟

فغضب سليمان وقال :

ـــ لأعذبنه عذابا شــــديدا ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين .

ودعا بالعقاب ، وقال لها :

ـــ على بالهدهد الساعة .

فرفعت العقاب نفسها فى السماء حتى التصقت بالهواء ، ونظرت يمينا وشمالا فاذا بالهدهد مقبل من نحو اليمين ، فانقضت العقاب نحوه وقالت له :

ـــ ويلك ! ثكلتك أمك ! ان نبى الله سليمان قد حلف أن يعذبك أو يذبحك .

فما ارتعــدت فرائص الهــدهد ، وطار مطمئنــا ، فلما انتهى الى المعســكر تلقاه النسر والطير كله ، وقالوا له فى اشفاق :

ـــ أين غبت فى يومك هذا ؟ فقد توعدك نبى الله سليمان .

فظل فى رفقة العقاب منطلقا هادىء النفس ، مستريح البال ، حتى أتيا سليمان ، وكان قاعدا على كرسيه والى جواره وزيره آصف بن برخيا ، فقالت العقاب :

ـــ قد أتيتك به يا نبى الله .

فالتفت سليمان الى الهدهد ، وفى عينيه غضب ، فرفع الهدهد رأسه ، وأرخى ذنبه ، وأخذ يجر جناحيه على الأرض تواضعا ، فمد سليمان يده الى رأسه فجذبه منه وقال :

ـــ أين كنت ؟ لأعذبنك عذابا شديدا !

فقال الهدهد فى استعطاف :

ـــ مهلا يا نبى الله .

ـــ ما الذ ىأبطأ بك عنى ! ؟

ـــ أحطت بما لم تحط به .

فالتفت سليمان الى آصف ، وقال فى دهش :

ـــ ما هذه الدعوى العريضة ؟

فقال الهدهد فى توكيد :

ـــ جئتك من سبأ بنبأ يقين .

ـــ ما هو ؟

ـــ انى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ، ولهـــا عرش عظيم .

ـــ حقـــا ؟

ـــ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله .

ـــ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .

وذهب الهدهد ليدل الناس على الماء ، وكتب سليمان كتابا لبلقيس ، ثم طلب الهدهد ، وألبسه التاج على رأسه ، ووضع الكتاب فى منقاره وقال له :

ـــ اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم ، ثم تول عنهم ، فانظر ماذا يرجعون .

فطار الهدهد والطيور حوله ، ثم انطلق رسول سليمان وحده الى سبأ حاملا الكتاب الكريم .

— ٣ —

أغلقت بلقيس عليها باب مخدعها ، ومضت الى فراشها ، واستلقت وقد ثبتت عينيها فى سقف الغرفة ، كانت تفكر فى أمور ملكها ، وفيما هى فى سبحات خيالها أقبل الهدهد ، ودخل الى مخدعها من كوة كانت تتسلل منها الشمس ، فألقى الكتاب على نحرها . فانتبهت ، وأخذت الكتاب فى عجب ، فملأ عبير المسك خياشيمها ، وقلبته فى يدها ، فرأت الخاتم فبهرها ، ولمحت الهدهد فى انسحابه فغمغمت :

— ان ملكا تكون رسله الطير لملك عظيم !

وفضت الكتاب وقرأته ، فأطرقت ساهمة ، ورأت أن تجمع خواصها وأهل مشورتها ، لتعرض عليهم أمر هذا الكتاب الغريب ، فبعثت فى طلبهم ، حتى اذا اكتمل عقدهم خرجت اليهم وقالت :

— يأيها الملأ ، انى ألقى الى كتاب كريم ، انه من سليمان ، وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلو على وأتونى مسلمين .

وصمتت قليلا ، ونقلت عينيها فى وجوه الموجودين ، فلمحت الاهتمام العظيم . فقالت :

— يأيها الملأ ، أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون .

ـــ نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين .

فأطرقت بلقيس تفكر ، وتمعن فى التفكير ، فرأت أن فى الحرب دمارا وخسرانا مبينا فقالت :

ـــ ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون ، وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون .

ودعت بلقيس المنذر بن عمرو ، وكان رجلا من أشراف قومها ، وقالت له :

ـــ سأبعثك الى سليمان بهذه الهدايا .

وقدمت له لبنات من ذهب ، ولبنات من فضة ، وتاجا مكللا بالدر والياقوت ، وأوعية ملئت بالمسك والعنبر ، وحقة مغلقة ، وقالت للرسول :

ـــ سله أن يخبرك بما فى الحقة قبل أن يفتحها ، فاذا أخبرك سله أن يثقب الدرة ثقبا مستويا ، وأن يدخل خيطا فى الخرزة .

ـــ أفعل .

ـــ انظر الى الرجل اذا دخلت عليه ، فان نظر اليك نظرة غضب ، فاعلم أنه ملك ، فلا يهولنك منظره ، واذا رأيته رجلا بشا لطيفا ، فاعلم أنه نبى مرسل ، ورد على الجواب كما تسمعه منه .

وخرج رسول بلقيس الى سليمان يحمل الهدايا فى ركب فاخر عظيم ، وطار الهدهد رسول سليمان يحمل أنباء ما جرى فى قصر بلقيس الفاتنة ، التى كانت أنضر من ورد الربيع .

— ٤ —

أمر سليمان الجن أن يعملوا لبنات من ذهب وفضة ، ويفرشوها على طريق وفد بلقيس ، وأمرهم أن يجعلوا بين اللبنات موضعا خاليا على قدر اللبنات التى يحملها رسول الملكة الساحرة ، فراح الجن يعملون ، والجنود يهيئون مكان الاستقبال ، ومطابخ سليمان تطهو لذلك الجيش الجرار الطعام فتذبح آلاف الأغنام والعجول ، وتجلب مقادير هائلة من الفواكه ، حتى اذا وافى ميعاد الغداء ، مدت الموائد الى مسافات بعيدة ، واقبل الجنود يلتهمون الطعام .

وقعد سليمان على كرسيه والى جواره وزيره ، وأحاط به خلق كثير ، وأمر الجن أن يأتوه بأحسن الدواب ، فيجعلوها عن يمين الديوان وعن شماله ، وأقبل رسول بلقيس ، ومن على تلك اللبنات الذهب والفضة ، ورأى ملك سليمان ، فتقاصرت اليه نفسه ، ورأى المحل الخالى بين اللبنات فخاف أن يتهم فوضع ما معه من لبنات فى ذلك المحل ، وما زال سائرا على استحياء ، حتى وقف بين يدى سليمان مضطربا ، ولكن بشاشة الرجل وتطلق محياه ، أعادت اليه هدوءه واطمئنانه .

وجلس الرســول يقلب ناظــريه فيما حوله من عجائب وهو مأخــوذ ، ووقف غلمان حســان على رأس ســليمان بأطباق من ذهب ، وهى مملوءة من المسك السحيق ، وفيهــا صحائف من اليــاقوت الأحمر ، وفيها شىء من ماء الورد ، وفوقها طيور صغار ترفرف بأجنحتها ، وتنزل فى ماء الورد ، وتتمرغ فى ذلك المسك ، وتطير وتنتفض على الحشد الهائل ، فتعبق المكان بشذا لطيف . وانتهى سليمان من قراءة كتاب بلقيس ، فقال للرسول :

ــ أين الحقة التى معكَ ؟

ــ ها هى ذى .

فقلبها بين يده وقال :

ــ فيها درة مثمنة من غير ثقب ، وفيها خرزة من جزع وهى معوجة الثقب .

ــ صدقت . فاثقب الدرة ، وأدخل الخيط فى الخرزة .

فتناول سليمان الدرة وقال :

ــ من لى بثقبها ؟

فتقدمت أرضة ، فأخذت شــعرة فى فيها ، ومرت فى الخرزة حتى خرجت من الجانب الآخر ، ورسول بلقيس ينظر فى ذهول ، وتناول سليمان الخرزة وقال :

ــ من لهذه الخرزة يسلكها بالخيط ؟

فقالت دودة بيضاء :

ــ أنا لها يا نبى الله .

فأخذت الدودة خيطا فى فمها ، ودخلت الثقب فخــرجت من الجانب الآخر . وقدم الرســول ما بقى معــه من هدايا ،

فلم يقبلها سليمان : فما كان ليقبل منهم الا أن يهجروا عبادة الشمس الى عبادة الله ، فقال :

— أتمدونني بمال ؟ ! فما آتاني الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون .

— مولاى !

— ارجع اليهم ، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون .

وعاد الرسول الى بلقيس وقد ملئ عجبا ، وجعل يقص عليها ما رأى فى ملك سليمان العريض . فغمغمت :

— والله ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة .

— ٥ —

تأهبت بلقيس للانطلاق ، وخشيت على عرشها العظيم ، فأغلقت دونه الأبواب ، ووكلت به حراسا شدادا ، ولما تم كل شئ أذن بالرحيل ، فشخصت الملكة الجميلة الى سليمان فى ركب هائل ، وتقضت ليالى وأيام ، وفى ذات يوم خرج سليمان وجلس على سرير ملكه ، فرأى هرجا قريبا منه ، فقال :

— ما هذا ؟

— بلقيس يا رسول الله .

— وقد نزلت منا بهذا المكان ؟

— نعم .

فأطرق سليمان يفكر ، ان الهدهد وصف له عرشها فأسهب فى الوصف ، فلو أنه أحضره أمامها الساعة لكان فى ذلك آية عظيمة ، ودليل على قدرة الله الفائقة ، فرفع رأسه وقال :

— يأيها الملأ ، أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ؟

قال عفريت من الجن :

— أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وانى عليه لقوى أمين .

وقال آصف :

— أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك .

— حقا ؟

— انظر يا نبى الله الى جهة اليمين .

فنظر ، فما رجع نظره حتى رآه مستقرا عنده . كان مقدمه من ذهب مطعم باليواقيت الحمر ، والزمرد الأخضر ، ومؤخره من فضة ، مكلل بألوان الجوهر ، وله أربع قوائم ، قائمة من ياقوت أحمر ، وقائمة من ياقوت أخضر ، وقائمة من زمرد أخضر ، وقائمة من در أصفر ، وكانت صحائف السرير من ذهب خالص ، كان عرشا رائعا ، فشعر بشكر ، ونكس رأسه فى تواضع وقال :

— هذا من فضل ربى ، ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربى غنى كريم .

— نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون .

فأخذوا يزيدون فيه وينقصون منه ، محاولين أن يخفوا بعض معالمه ، وأمرهم ببناء صرح ، فبنوه من زجاج مستور .

وأقبلت بلقيس رائعة الحسن ، شديدة الأسر ، تهفو اليها القلوب ، وما ان رأى جمالها حتى مال اليها ، واستقبلها باشا وكانت فى ذهول ! رأت فى ملكه عجبا لم تر مثله ، يأخذ بالألباب ، ويحير العقول . وقادها الى حيث كان عرشها ، وقال :

ـــ أهكذا عرشك ؟

فقلبت نظرها فيه فى دهش ، وقالت :

ـــ كأنه هو .

وقادها الى الصرح ، وقال لها :

ـــ ادخلى .

نظرت الى صقال الصرح فرأت الأشياء معكوسة فيه فحسبته لجة ، فكشفت عن ساقيها الرائعتين البديعتين ، فغض سليمان من بصره ، وقال :

ـــ انه صرح ممرد من قوارير .

وعاشت بلقيس عند سليمان أياما تقضت كحلم جميل ، رأت فيها عجائب وأسرارا ، وأشياء تحير العقول ، فأيقنت أن سليمان نبى كريم ، فآمنت به ، ورفعت رأسها الى السماء وقالت :

ـــ رب ، انى ظلمت نفسى وأسلمت لله رب العالمين .

استر

قصة استر الواردة فى التوراة كتبها مردخاى نفسه ، ولما كان أحد أبطال القصة فقد كتبها من الزاوية المشرقة ، وقد عالجتها علاجا يختلف عن التوراة » .

— ١ —

قصر هائل عظيم ، يوحى بالفخامة والروعة والغنى ، انه قصر الملك احشويروش الذى انتشر سلطانه على الهند وفارس والبلاد الممتدة الى كوش ، انه قصر أغلق أبوابه على روائع وبدائع ، انه كنز احتوى فى بطنه كنوز .

والتف بالقصر حراس شداد ، حراس يغدون ويروحون ، حراس واقفون لا يتحركون . ووقف مردخاى امام باب القصر الهائل ، وقد ارتدى ثيابا مزركشة ، وتصرم الوقت وهو منتصب كتمثال ، لا تختلج فيه خالجة ، وان كانت الذكريات تتتابع فى رأسه ، فتوحى اليه التأمل والتفكير .

راحت ذكريات الأيام الخوالى التى امضاها فى أورشليم

تفد الى ذهنه ، انه يرى نفسه فى المعبد بين قومه يعبد اله اسرائيل ، فيشيع فى صدره حنان ، ولكن سرعان ما ينمحى ذلك الاحساس ، لينتشر احساس آخر يضيق صدره ، ويحرك أشجانه ، فقد قفزت الى رأسه مشاهد اجتياح جيوش بختنصر لبلاده ، انها لتتدفق تدفق السيل العارم ، مخلفة وراءها الخراب والدمار ، ورأى بعين خياله دماء اليهود تجرى فى الطرقات ، وقد تناثرت أجساد القتلى أشلاء ، ورأى نفسه يسقط فى أيدى الأعداء ، ويساق مع الأسرى زمرا ، حتى اذا بلغ الساحة ألفى يكنيا ملك اليهود قد جىء به أسيرا ، ورأى نفسه وبنى اسرائيل وهم ينطلقون كقطيع من الأنعام ، منكسى الرءوس ، يحدوهم الذل ، ويعلوهم العار حتى خرجوا من فلسطين ، ليشتتوا فى الأرض فزفر زفرة خرجت من قلب حزين .

وسمع وقع أقدام ، فانتبه الى ما حوله ، فرأى أميرا من الأمراء قادما ، فحياه ، وما غاب الأمير فى القصر حتى عاد مردخاى الى ما كان فيه .

رأى نفسه وهو يباع بأسواق الرقيق بفارس الى رجل فقير ، لم يكن صاحب ضياع أو قصور ، بل كان صاحب عمل ، فاشتراه ليعاونه فى عمله ، ورأى نفسه وهو يعمل لذلك الرجل ، حتى كسب ثقته ، ثم كاتبه على أن يهب له حريته لقاء مبلغ كبير . ولما كان مردخاى يهوديا ، كان قادرا على كسب الأموال ، فراح يعمل حتى ادخر ما يفك به رقه ، ويعيد اليه حريته .

واستمر مردخاى يفكر ويقلب الفكر ، حتى انتهت نوبته ، فدخل غرفة من غرف القصر الكثيرة التى خصصت لمن يعملون فيه .

— ٣ —

دخل مردخاى غرفته ، فألفى استر تتطلع الى صورتها فى المرآة ، وقد لاح فى وجهها الرضا ، كانت رائعة الحسن ، شديدة الأسر ، عيناها تلمعان ببريق يخطف القلوب ، شعرها الأسود الجميل المسترسل خلفها ، يزيدها روعة وحسنا . كانت فى السابعة عشرة ، يتدفق فيها الدم الفوار ، ويزينها تاج الشباب .

رماها بنظرة خاطفة ثم قال لها :

— تفتحت يا استر ، تفتح الأزهار فى الربيع ، ما أجمل حسنك !

فقالت استر فى دلال :

— أأنا جميلة حقا ؟

فقال مردخاى وقد شرد بصره :

— ما خلق الله هذا الجمال عبثا ، لابد يا استر أن يبذل لمصلحة بنى اسرائيل .

فقالت له استر :

— ماذا نستطيع أن نفعل ؟

— الجمال يا استر يفعل بالرجال الأعاجيب ، انه يلين أقسى القلوب ، وانني لأرجو أن أستطيع بهذا الجمال الساحر أن أصون مصالح شعبنا ، اننا يا استر شعب مبغض ، يكرهه كل الشعوب ، لأن الله فضلنا عليهم ، جئنا الى هنا ونحن أسرى

وعبيد ، ولكن بجدنا اغتنينا وأصبحنا أصحاب الثروات فى هذه البلاد ، ان فارس والهند وكل هذه البلدان أصبحت فى قبضة يدنا .

فقالت استر وهى تميل برأسها الى الوراء ، وتنظر الى صقال المرآة .

ـــ هذا جميل .

فقال مردخاى :

ـــ هذا جميل ما دامت الغشاوة على أعين النـــاس ، أما اذا انقشعت تلك الغشاوة ، ورأوا أننا نستولى على منابع الثروات ثاروا علينا ، ويا ويلتنا اذا ثار الناس علينا ! ستراق دماؤنا ، وتترك أجسامنا للـــكلاب . كنت يا استر يوم غزا بختنصر بلادنا صغيرة ، ولو كنت عاينت ذلك اليوم الرهيب ، لما غادرت عينيك مشاهد ذلك اليوم المشئوم .

فقالت له استر :

ـــ أتظن يا عمى أن يعود علينا يوم شديد كذلك اليوم ؟

ـــ هذا رهن بأن يفطن رجل واحد الى ما أصبحنا فيه ، ثم يقوم بتأليب الناس علينا ، ان الشعوب تبغضنا يا استر ، تبغضنا من أعماق قلوبهم ، كأنما بيننا وبينهم ثارات .

فقالت استر وهى تنظر اليه بعينيها النجلاوين الساحرتين :

ـــ مصائرنا هنا معلقة بخيط واه .

فقال مردخاى مؤمنا :

ـــ وستظل معلقة بذلك الخيط الضعيف ، الا اذا استولينا على هذا القصر .

فقالت فى دهش :

ـــ نستولى على هذا القصر ؟

ـــ أجل يا استر نستولى عليه ونتحكم فيه .

ـــ من ذا الذى يستولى عليه ؟ !

ـــ أنا وأنت يا استر ، أنا بدهائى ، وأنت بجمالك ، اننى ما جئت الى هذا القصر الا لأتسلط عليه ، وأحرك رجاله ، ليعملوا على ما فيه مصلحتنا نحن اليهود .

فقالت له استر وهى ترمقه بنظرة فاحصة :

ـــ هذا حلم لذيذ ، وما أحسب أن ذلك ميسور .

فقال وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة خبيثة :

ـــ ما أيسر ذلك على من ينفق الأموال ، ويقدم مثل جمالك الفاتن البديع .

وصمت مردخاى قليلا ، ثم قال :

ـــ أتعرفين مموكان حكيم المملكة ، الذى لا يقطع الملك أمراً الا اذا استشاره ؟

ـــ نعم أعرفه .

ـــ انه طوع بنانى .

ـــ وبماذا استملت ذلك الشيخ الفانى ؟

ـــ أغرقته بهداياى .

فقالت وهى تضحك :

ـــ أنت الحكيم يا عماه .

ـــ انه ليس وحده الذى استملته الينا ، فهناك الخصيان السبعة ، الذين لا يغادرون الملك فى الليل أو فى النهار .

ورمقته من طرف عينها ، وقالت له فى خبث :

ـــ أتحسب أننا ننجح فى استمالة كل الرجال بالمال ؟

فقال لها مردخاى وهو يبتسم فى زهو :

ـــ من لم يأسره المال يأسره الجمال .

— ٣ —

تأهب القصر للوليمة الكبرى ، التى أعدها الملك أحشويروس للأمراء ، وأشراف قومه ، ورؤساء مملكته ، وكان هدف الملك من هذه الوليمة أن يظهر للناس عظمته ، ليزداد فى أعينهم رفعة ، لذلك أنفق على هذه الوليمة بسخاء .

وتوافد الأمراء والأشراف الى حديقة القصر الهائل ، وأقبل الملك يتألق كجوهرة ، وبدأ الحفل ، وجاء الخدم يحملون كئوس الذهب والفضة ، ينطلقون بين أعمدة المرمر الهائلة ، التى كسيت ستائر بيضاء وخضراء وزرقاء ، وينسلون الى حيث جلس المدعوون ، يقدمون لهم الخمر ، وراح الجميع يعبون الشراب حتى ملئوا نشوة .

وانقضى الليل والجميع فى حبور ، حتى اذا قام الملك انصرف الجميع ليعودوا الى الوليمة فى اليوم التالى . واستمرت وليمة الأمراء والأشراف مائة وثمانين يوما ، الموائد تمد ، والخمر تصب فى البطون ، نتدير الرءوس .

وأعدت الملكة وشتى وليمة للنساء ، فما كان الرجال والنساء يجتمعون فى مكان واحد ، واستمرت هذه الوليمة أياما وأسابيع وشهورا .

وأراد الملك أن يشرك عامة الشعب فى الاعجاب بعظمته ، فدعا الشعب الى قصره ، ودعت الملكة وشتى النساء الى جناحها ، وراح الخدم يصبون الخمر حتى جرت أنهارا .

وانتشى الملك ، ولعبت الخمر برأسه ، فقال للناس :

ــ ان امرأتى أجمل امرأة فى هذه البلاد .

وصمت الناس ولم ينبس أحدهم بكلمة ، فقال الملك :

ــ ألا تصدقون ؟ سترونها الآن ، وستحكمون أنها أجمل امرأة فى الوجود .

ونادى الملك خصيانه :

ــ بزتا . حربوتا اذهبا الى الملكة وقولا لها اننى أطلبهـا هنا ليرى الناس جمالها البديع .

وذهب بزتا وحربوتا ، وكان مردخاى حاضرا هذه الوليمة ، فلمعت فى ذهنه فكرة ، فاقترب من الخصى كركس ، وهمس فى أذنه :

ــ هذا فظيع . ليت الملكة ترفض الحضور . كيف تحضر الملكة الجليلة الى هؤلاء السكارى ؟ انها لو جاءت لسقطت هيبتها ، من يدرى ماذا تفعل الخمر برءوس هؤلاء الحمقى ، ما كان لمولانا أن يفعل هذا .

وصمت قليلا ، ونظـــر الى الخصى ، ليرى أثر كلامه فيه ، فألفى على وجهه دلائل الحيرة والتفكير ، فقال همسا :

ــ لو كان لى من الأمر كثير أو قليل ، لذهبت اليها أشير عليها بعدم المجىء .

ولاح فى وجه الخصى العزم ، ثم انطلق الى جناح الحريم ، ومردخاى يرمقه ، وقد انتشرت فى صدره نشوة ، فقد بدأ ينفذ الخطة التى نسجها شيطانه ، وتلفت يبحث عن مموكان الحكيم حتى وقعت عيناه عليه ، فذهب منسلا اليه ، فلما رآه مموكان حياه فى حرارة وترحيب .

ووقف مردخاى يقدح ذهنه ، وينتقى الألفاظ التى يوحى بها الى مموكان دون أن يثير ريبه ، وبقى يترقب ، حتى اذا ما لمح الخصيان عائدين ، وسوس لمموكان :

ـــ انظر ! انهم يعودون خافضى الرءوس ، يخيل الى أن الملكة رفضت المجىء ، فلو أنها رفضت اطاعة الملك لكان فى ذلك اهانة لا للملك وحده ، بل للشعب جميعا .

وانتقل مردخاى من جواره بعد أن وسوس له بما يريد ، واندس بين الجموع .

وتقدم الخصيان الى الملك وقالوا :

ـــ رفضت جلالتها الاذعان لأوامركم يا صاحب الجلالة ، وقالت انها لا تقبل أن تجىء تعرض نفسها على سكارى يترنحون .

وارتفعت أصوات استنكار ما لبثت أن خفتت وزالت ، لما هب الملك غاضبا يصيح :

ـــ أين مموكان ليرى رأيه فى هذه العاصية ؟

وتقدم الحكيم من الملك وهو يحنى رأسه ويقول :

ـــ مولاى ؟

ـــ ما رأيك يا مموكان فيما أتته الملكة الآن ؟

ـــ ان ما فعلته يا مولاى ليس جريمة فى حقكم وحدكم يا صاحب الجلالة ، ولكنه جريمة فى حق الشعب جميعا ، لقد سمع جميع النساء المدعوات الى وليمة الملكة وشتى بذلك الرفض ، وما هو الا الغد حتى يكون نبأ هذا الرفض قد ملأ البقاع ، وبلغ مسامع النساء فى مشارق مملكتكم ومغاربها ، فاذا ما أمر رجل امرأة أمرا رفضت طاعته تشبها بالملكة وشتى التى رفضت طاعة الملك .

ان الأمر أخطر من ظواهره يا صاحب الجلالة ، لذلك يحتاج

فى معالجته الى قسوة وحزم حتى تعيد يا مولاى الى الرجال هيبتهم وكلمتهم المسموعة .

ان الأمر أخطر من ظواهره يا صاحب الجلالة ، لذلك تطرد من القصر ، لتكون عبرة للنساء اللاتى يداخلهن الغرور ، فيعصين أوامر أزواجهن ، وليكتب بذلك الى جميع عمالك يا مولاى ، ليذاع على الشعب ، مؤكدا أن الرجل هو رب البيت ، الآمر وحده فيه .

فأعجب الملك برأى حكيمه ، فقال :

ـ على بالكتاب ، ليكتبوا الى أقطار مملكتى ، أن الملك أحشويروس قد طلق الملكة وشتى ، لعصيانها أوامره ، فما كان لامرأة أن تعصى زوجها ، لأنه وحده الحاكم فى بيته .

وخرجت الأوامر الملكية الى فارس والهند والبلاد الممتدة الى كوش ، وخرج الناس من الوليمة يتحدثون فى هذا الأمر الخطير ، وأسرع مردخاى الى استر ابنة أخيه يزف اليها نبأ انتصاره الكبير .

دخل مردخاى على استر ، فألفاها كعادتها أمام المرآة تتزين ؟ وتتطلع فى اعجاب الى حسنها ، فدنا منها وقال وهو يتفرس فى مفاتنها :

ـــ يا استر آن لهذا الجمال أن يسود .

ولمحت استر تلك الابتسامة العريضة التى ارتسمت فى وجهه ، فاستدارت وقالت له :

ـــ ماذا جرى يا عمى ؟

فقال مردخاى وهو يرنو اليها فى خبث ، والسعادة تلوح فى وجهه :

ـــ طلق الملك الملكة ، وطردها من قصره .

فقالت استر وهى تنظر اليه مليا :

ـــ ومالى أراك سعيدا كأنما عادت السعادة الى شعب بنى اسرائيل ؟

فقال مردخاى وهو يمد ذراعه فوق كتفها البديع :

ـــ أغريرة أنت يا استر أم تتخابثين ؟ أما تدرين أهمية ذلك لنا ؟ أن الملك بعد أن طرد زوجته سيحس وحشة ، وسيشعر بفراغ ، وسينشد السلوى ، سيبحث عن العذارى الفاتنات فى مملكته ، وهل فيها من هى أفتن منك يا استر ؟ سأقدمك اليه لتسلبيه قلبه ، وتقوديه حيث تقودينه ، ولن تقوديه

الا الى ما فيه مصلحة بنى اسرائيل ، ستصحبين مالكة فؤاده ، فجمالك آسر قاهر ، تعنو له المهج ، وتذل له أعناق الجبارين . انك يا استر درة ، وستكونين أغلى درة فى مملكته ، فما خلق الله هذا الجمال الا للملوك .

فقالت استر :

ــ أتقدمنى يا عمى حظية للملك ؟

ــ وماذا فى ذلك يا استر ، وهل كان هذا يشين يهودية ؟ ! على كل يهودى أن يقدم أى شىء وكل شىء فى سبيل بنى اسرائيل ، عشت أعمل لهذه اللحظة مضحيا بالعمر كله ، لأجنب اليهود نكبة من النكبات التى خصهم بها الزمن ، فاذا لاحت لى الفرصة أتحسبين أننى أدعها تمر ؟ لا يا استر ، اننى ربيتك بعد موت أخى وزوجته ، واتخذتك بنتا ، وصرت أرعى جمالك وأتعهده ، لأقدمه قربانا الى اله اسرائيل ، يا طالما فكرت فى الطريقة التى أستغل بها هذا الحسن الفتان ، لقد شغلت ذهنى آلاف الفكر ، وها هى ذى الفرصة الذهبية تلوح .. لا تحسبى يا استر أنها جاءت سهلة هينة ، انها ما لاحت لنا الا بعد كد وتدبير ، وامعان فى الكد والتدبير .

وغمغمت استر وقد شرد بصرها :

ــ حظية الملك .

ــ أجل ، حظية الملك ، حظية الملك التى تقدم جسدها صيانة لمصالح شعبها ، يا لها من تضحية كريمة خليقة بنا يا استر .

وصمت قليلا وفكره يعمل ، ثم قال هامسا :

ــ غلمان الملك رهن اشارتى ، سأوحى اليهم أن يشيروا عليه أن يبعث رسله الى أنحاء مملكته يلتمسون العذارى الفاتنات ،

ويدفعون بهن الى هيجاى حارس النساء ، ويدخلونهن على الملك ، فمن راقت عينيه ، فلينصبها ملكة مكان وشتى .

اطمئنى يا استر ، فهيجاى صديقى ، سأسخو عليه ، ليتفنن فى تطييبك وتزيينك حتى اذا دخلت على الملك سلبته لبه وارادته ، فصار أسير جمال بنت اليهود .

فقالت استر حالمة :

— لكأنما كل ذلك قد انتهى .

فقال مردخاى وهو يتطلع اليها فى اعجاب :

— انى أراك الساعة يا استر وعلى رأسك الجميل يتألق تاج مملكة أحشويروس !.

فقالت وقد التمعت عيناها رغبة .

— يا للأحلام العذاب (*)

— ٥ —

بعث الملك رسله الى أنحاء مملكته يلتمسون الفتيات الأبكار الجميلات ، وتوافدت الى القصر فتيات رائعات الحسن ، ممشوقات القد ، كن أمشاجا من الروعة والجمال ، ودفع بهن الى هيجاى حارس النساء ، ليطيبهن بالعطور والأدهان .

وفى ذات يوم همس مردخاى فى أذن هيجاى ، أنه عثر على تحفة من تحف الجمال ، وطلب من صديقه أن يأتى معه ليراها ، فانه على ثقة من أنها ستبهر الخصى الخبير فى النساء !

وانطلق هيجاى ومردخاى الى حيث كانت استر ، فلما وقعت عينا هيجاى عليها ، وهى تتلألأ وتلمع ، لاح فى وجهه الاعجاب وهمس :

ـــ يا للجمال ! انها كنز يا مردخاى .

فقال مردخاى وهو ينحنى أمام الخصى :

ـــ اننى أضع هذا الكنز بين يديك يا هيجاى ..

فقال هيجاى ، وعينه الفاحصة تجول فى مفاتن الفتاة :

ـــ جمال طاغ ، لا يستطيع أن يثبت أمامه انسان ، ابعث بها الى بيت النساء ، وسأنزلها فى أفخم مكان ، اننى لم أنتخب من بين مئات الوافدين الى القصر الا سبع فتيات ، سأضم اليهن استر .

فقال مردخاى وهو فرحان :

ـــ غدا سأبعث بها اليك .

وخرج هيجاى ، وأقبل مردخاى على استر يضمها اليه نشوان بخمر النصر ، وراح يهمس فى انفعال :

ـــ غدا يا بنت أخى يفضح جمالك جمالهن ، كما يفضح نور الصباح أضواء السرج .

— ٦ —

تأهبت استر للانطلاق الى بيت النساء ، فاقترب مردخاى منها وقال لها :

— تذكرى يا استر وصاياى لك ، اياك أن يعرف أحد أنك يهودية ، لأنه اذا انكشف هذا الأمر فقدنا عطف الناس ، تذكرى يا استر أنك ما دخلت هذا القصر الا لتسهرى على مصالح بنى اسرائيل ، ان قلوب اليهود جميعا ملتفة حولك ، وآمالهم معقودة عليك . مصالح بنى اسرائيل أولا ، ثم يأتى بعد ذلك أى شىء .

وأقبل غلام من غلمان القصر ، ليأخذ استر الى بيت النساء ، فسارت متأنقة متألقة ، وقبل أن تغادر المكان قبلت مردخاى ، وانطلقت وهو واقف يرقبها خافق القلب ، فلما اختفت عن عينيه غمغم :

— اذهبى يا استر فى رعاية اله اسرائيل .

ودخلت استر الى بيت النساء ، فألفت فتيات أنضر من الورود ، وأطيب من الأزهار ، فمشت فى صدرها الرهبة ، وكادت تتعثر من الخوف ، ولكنها تذكرت اطراء مردخاى وهيجاى لجمالها ، فاستردت ثقتها ، ورفعت رأسها تيها بحسنها .

ودفع بها الى هيجاى ، فكان يعالجها بالأدهان والطيب

والعطور الأيام والأسابيع والشهور ، فزادت استر روعة على روعة ، وجمالا فوق جمال .

كان هيجاى يدفع الى الملك بعذراء كل ليلة ، فما تنقضى الليلة ، ويلوح نور الصباح ، حتى يدفع بالمرأة الى حارس السرارى ، لتضم الى قطيع النساء المترقبات اشارة من الملك للتسرية عنه ليلة .

كانت استر ترقب العذارى الداخلات الى مخدع الملك أول الليل ، الخارجات منه أول النهار وفى قلبها فرحة ، لأن احداهن لم ترق عينى الملك ، فمد ذلك فى حبل الأمل أمامها ، لأنه لو استولت امرأة على قلبه واتخذها ملكة مكان وشتى ، قبل أن تدخل هى عليه ، لكان فى ذلك تحطيم لآمالها ، وانهيار للرؤى العذاب التى تتراءى لها ، ولكن ما كانت تلك الفرحة تدوم ، بل كانت تغيض اذا ما خطر على بالها أن مصيرها قد يكون كمصير الأخريات ، اللاتى كان كل حظهن فى هذا القصر ليلة واحدة فى فراش أحشويروس ، ليلة دافئة مليئة بالأحلام ، تعقبها ليال طوال باردة ، كلها سأم وملل وفراغ .

وجاءت الليلة المرتقبة ، ليلة دخول استر على الملك ، فأخذ هيجاى يتفنن فى تزيينها ، حتى كانت آية من آيات الحسن والابداع ، وقبل أن تدلف الى مخدع الملك ، راح يوصيها بما تفعل ، لتنال فى عينى الملك حظوة .

وانقضت الليلة كحلم بهيج ، حلم كله نشوة ، وأقبل الصبح ، فذهبت استر الى حجرتها ، واستلقت مسترخية على فراشها ، وأطلقت لأفكارها العنان . راحت مشاهد الليلة الماضية تمر أمام أعين مخيلتها ، انها لترى الملك يدنو منها متدلها ، وأنها لترى نفسها وهى تتثنى فى دلال ، يا لها

من ليـــلة ! ترى أتطفـــو ذكراها فى رأس الملك أم ترسب ، كآلاف الليالى التى أمضاها غارقا فى اللذة ؟ آ

ومر النهار واستر تترجح بين اليأس والرجاء ، وما وافى الليل ، حتى كان هيجاى عندها يزف اليهـــا البشرى الغالية ، ان الملك يطلبها ليلة ثانية .

وتصرمت الليالى ، والملك يطلب استر كل ليلة ، فقد شغف بها حبا ، وفى ليلة من الليالى لعبت به الخمر وأفانين المرأة . فوضع التاج على رأس استر البارعة .

وأعد الملك وليمة هائلة ، دعا اليها الأمراء وأشراف القوم ورؤساء العشائر ، وأعلن أنه اتخذ استر له زوجة ، وانتهت وليمة استر ، وقد أصبحت بنت اليهود ملكة على البلاد ، بينما كان مردخاى الذى فكر ودبر واقفا بباب القصر ، تشيع فى صدره نشوة عارمة .

— ٧ —

أصبحت استر سيدة القصر ، ومـــردخاى حارس بابه ، وعلى الرغم من ذلك كانت الرسل تمشى بينهما ، كانت تصـــل اليه أنباؤها ، وتصل اليها أنباؤه .

وفى ذات يوم ، لاح فى ذهنه خاطر ، ان استر أصبحت ملكة ، فما يدريه أنها قد تستمرىء هذه الحياة ، وتنسى حكمة دخولها القصر ، فاذا وقعت لبنى اسرائيل محنة ، تراخت فى مد يد العون اليهم ، فتكون الطامة العظمى ، أقلقه ذلك الخاطر ، وراح يقدح فى ذهنه حتى اهتدى الى أن خير ما يفعله ، أن

يتقرب هو نفسه الى الملك ، فهو يثق فى نفسه أكثر من ثقته فى غيره ، ولو كان ذلك الغير استر نفسها .

وقر رأيه على أن يعمل ليتقرب من أخشويروش ، ولما كان يعلم أن القصور مسارح للدسائس والمؤامرات ، أخذ يتحسس لعله يقع على مؤامرة برفع أمرها الى الملك ، فتنيله القرب والحظوة .

راح مردخاى يسترق السمع لكل حديث ، ويحصى حركات رجال القصر وسكناتهم ، وفى ذات ليلة رأى غلامين من غلمان الملك يتستران بالظلام ، ويتسللان الى ركن قصى يتناجيان ، فانطلق خلفهما كطيف ، ووقف قريبا منهما يحتمى بالجدران ، يتسمع .

كان الغلامان غاضبين حانقين ، فراحا يتآمران على الملك ، وما انتهيا من بثهما ونجواهما ، حتى انطلقا الى القصر على حذر ، ولو التفتا خلفهما لتيقنا أن سرهما قد افتضح .

وبعث مردخاى الى استر أن ترفع الى الملك أن مردخاى قد قد وقع على مؤامرة دنيئة بيتت بليل ، أن بغثان وترشى خصيى الملك ، حارسى الباب يدبران اغتياله ، فهرعت استر الى الملك تنبئه بالخبر .

وقبض على الغلامين ، وجرت محاكمتهما ، فثبتت ادانتهما . وحكم عليهما بالقتل والصلب ، أما مردخاى فقد فكر الملك فى مكافأته .

كان الملك يثق فى هامان ، لأنه كان حصيف الرأى ، بعيد النظر ، فكان يستشيره فى كل أموره ، فبعث اليه ، وقال له :

— ان مردخاى أنقذ حياتى ، وانى أفكر فى أن أدنيه منى ، فماذا ترى ؟

فقال هامان :

— اننى يا مولاى أرى أن تمنحه جائزة ، وأن تدعه حيث هـو .

— لماذا يا هامان ؟

— لأنه يهودى ، واليهودى لا يخلص الا لنفسه .

وطلب الملك استر ، فدخلت عليه ، وجعلت تداعبه فى رقة ودلال ، ثم قالت له :

— ماذا فعلت لمردخاى يا مولاى ؟

فقال أحشويروش وهو يضحك :

— أعطيته ما يتمنى ، قيل لى ان غاية ما يتمناه يهودى أن تملأ جيوبه ذهبا .

واحست استر قهرا ، ولم تعترض خشية أن تكشف عن خبيئة نفسها ولكنها رأت أن تفعل شـيئا ، قد تستغله يوما ، فقالت :

— ان ما فعله مردخاى يستحق أن يسجل يا مولاى .

فقال الملك :

— هذا حق .

وأمر أن يدون ذلك فى سفر أخبار الأيام .

كان اعجاب الملك بهامان يزداد يوما بعد يوم ، فقد أثبت فى اكثر من مناسبة اخلاصه للعرش وللبلاد ، أراد الملك أن يكافئه ، فرقاه ، وجعله وزيره الأول .

وفى ذات يوم دخل هامان على الملك ، وقال له :

ـــ ان اليهود العبيد الذين وفدوا الى بلادنا سبيا من أورشليم ، قد عظم نفوذهم فى البلاد ، أثروا واغتنوا وأصبحوا أسياد المال المتحكمين فى الأسواق والأقـــوات والأرزاق ، انهم يتـــلاعبون بالأسعار ، ويمتصون دماء شعبك يا مولاى .

ولاح فى وجه أخشويروش الاهتمام ، فراح هامان يقول فى اخلاص :

ـــ لو كان نفوذهم قد قصر على دنيا المال لهان الخطب ، ولكن نفوذهم تغلغل فى كل مكان ، علموا الرؤساء الرشوة ، وبذروا فى قلوبهم الطمـــع ، وغرســـوا فى النفس الأحقاد ليشغل الشعب بأحقاده عنهم ، فيسلبوه هناءه وهم آمنون غضبه ، انهم يا مولاى أس كل البلايا فى البلاد . انهم ....

وصمت هامان فجأة ، فقال فى لهفة :

ـــ انهم ماذا يا هامان ؟

فقال هامان وهو يتحامى أن تتلاقى عيناه بعينى الملك :

ـــ معذرة يا مولاى ، انهم لو قدروا على أن يقوضوا عرشكم تحتكم لقوضوه .

فبان الغضب فى وجه الملك ، وقال :

ــ انهم أخبث أهل الأرض ، ماذا ترى أن نفعل فيهم ؟

فقال هامان فى حماسة :

ــ نستأصلهم ، نقتل أطفالهم وغلمانهم ، وشبابهم ونساءهم ، ورجالهم وشيوخهم ، فنستريح من شرورهم .

فقال الملك فى انفعال :

ــ هذا هو الرأى يا هامان .

فقال هامان فى حماسة :

ــ اننى على استعداد الآن أدفع لمن يقومون بقتلهم عشرة آلاف وزنة من الفضة ، يؤتى بها الى خزائن الملك .

فقال الملك وهو يخلع خاتمه :

ــ أبق الفضة لك ، خذ خاتمى ، وأصدر الى الولاة أمرا بقتل كل يهودى فى ولاياتهم .

ودعا هامان كتاب الملك ، وأمرهم أن يكتبوا الى الدهاقنة والولاة بقتل جميع اليهود فى ولاياتهم ، فى الثالث عشر من شهر آذار ، ولما تمت كتابة الرسائل ، ختمت بخاتم الملك ، وانطلق الرسل الى الولاة والحكام .

ــ ٩ ــ

علم مردخاى بالأمر الملكى القاضى بابادة اليهود فى فارس والهند ، والبلاد الممتدة الى كوش ، فشق ثيابه ، وانطلق الى ميدان القصر يصرخ وينوح ، وراح يحثو التراب على رأسه ، ورأى جوارى استر ما حل بمردخاى ، فدخلوا عليها ، وقالوا لها :

ـــ ان مردخاى فى ميدان القصر يصرخ ، وقد ارتدى ثيابا مهلهلة ، فاغتمت استر ، وبعثت اليه ثيابا جديدة ليرتديها ، فرد اليها الثياب ، وأرسل لها مع رسول :

ـــ ان هامان قد استصدر أمرا بقتل جميع اليهود فى الثالث عشر من شهر آذار ، لقد نزلت المحنة بشعب اسرائيل ، فوجب عليها أن تمد يد العون الى شعبها الذليل ، صار عليها أن تدخل على الملك ، مستغلة سلاح جمالها ، ملتمسة منه الرأفة بأهلها .

فبعثت اليه مع الرسول :

ـــ أنسيت يا مردخاى تقاليد هذه البلاد ؟ كيف أدخل على الملك دون أن يدعونى ، ان كل من يدخل عليه دون دعوة نصيبه القتل ، الا من يمد له الملك قضيب الذهب ، ماذا يكون حالى لو دخلت عليه ، ولم يقدم الى قضيب الأمان ؟ ! سيكون مصيرى القتل يا مردخاى ، وان مما يزيد فى مخاوفى أن الملك لم يطلبنى منذ ثلاثين يوما .

فبعث اليها مردخاى :

ـــ لا تحسبى يا استر أنك ستنجين من هذه المذبحة ، لأنك زوجة الملك . انك يهودية يا استر قبل أن تكونى ملكة ، وما أيسر أن يبلغ الملك ذلك ، انك ستقتلين حتما اذا أحجمت عن الدخول عليه ، أما اذا أقدمت ودخلت على أخشويروش العاشق الولهان ، فمن يدرى ؟ فقد يكون فى ذلك حياتك وحياة شعبك ، اننى على يقين يا استر أن فى اقدامك بركة ، فتشجعى وأقدمى انقاذا لنفسك ، ان لم يكن انقاذا لحياتنا .

نظرت استر الى المرآة ، فحز فى نفسها أن يكون مآل

جمالها الرائع العدم ، انها لو استكانت لكان فى ذلك القضاء الأخير ، وانه لعزيز عليها أن تستسلم للموت دون أن تدفعه عن نفسها ، وعزمت على أن تدخل على الملك دون أن يدعوها ، فقد يكون فى الاقدام على الموت دفع له ، وابعاد لخطره .

وراحت استر تتأهب للمعركة القادمة ، المعركة الفاصلة بين الحياة والموت ، فجعلت تشحذ سلاحها ، فراحت تتفنن فى ابراز مفاتنها ، ثم تقدمت الى قاعة العرش ، ومشاعر الرهبة تنبثق من أعماقها .

نظرت استر ، فرأت الملك جالسا على عرشه ، وهامان وبعض الوزراء واقفين خاشعين ، فخفق قلبها فى شدة ، ولكنها لم تنكص على عقبيها ، بل تقدمت وقد رفعت رأسها ، وانطلقت وكل خالجة فيها تنتفض رهبة . وثبتت عيناها على يد الملك ، وأرهفت حواسها .

تقدمت رويدا رويدا ، ولمحها الملك فلمعت عيناه سرورا ، ورفت على شفتيه ابتسامة ترحيب ، ورفع يده بقضيب الذهب ، فأسرعت استر وقد ردت اليها روحها ، فقد رضى عنها الملك ، ووهب لها حياتها .

وأقبل الملك عليها ، وقال لها فى بشاشة :

— ماذا تطلبين يا استر ، لك أن تسأليني نصف مملكتي .

فقالت استر فى رقة :

— كل ما ألتمسه أن يشرفني مولاى وهامان بالمجىء اليوم الى الوليمة التى أعددتها لجلالتكم .

فقال الملك وهو يرنو اليها فى شغف :

— سنحضر يا استر .

وأعـدت اسـتر وليمة فاخـرة ، وتأهبت لمقابلة الملك وهامان عدوها الخطير . وجاء الملك ووزيره ، وبالغت استر فى اكرامهما ، ولما دارت الكئوس التفت الملك إلى استر وقال لها :

ـــ ماذا تطلبين يا استر ؟ لك أن تسألينى نصف مملكتى .

فقالت استر فى دلال :

ـــ ان كل ما أطلبه هو رضى مولاى ، وانه ليدخل على قلبى البهجة لو شرف مولاى وهامان الوليمة التى أعدها غدا لجلالتكم .

وانصرف الملك وهامان ، وهما يحسان نشـوة ، الملك تلعب به نشوة الخمر ، وهامان تملؤه نشوة الزهو ، فقد خصته الملكة بدعوتها مع الملك ، وميزته عن سائر الأمراء !

ودخل الملك الى جناحه ، واستلقى فى الفراش الوثير ، وحاول أن يغمض عينيه ، واذا بصورة استر تحتـل رأسه ، انه يراها بالغـة الروعة والجمال وهى تقتحم عليـه قاعة عرشه وانه ليراها نابضة بالحيـاة وهى تسـقيه اليوم كئوس النشوة ، واحس حنينا اليها ، وهفت روحه الى لقائها ، فبعث يدعوها اليه .

وجاءت استر ، وهى آية فى الـروعة والحسن ، فـراح الملك يضمها اليه فى وله وهيام ، وتقضى الوقت بهيجا ، وتمددت استر فى اغراء ، وقالت :

ـــ ان أروع لحظات حياتى يا مولاى هى تلك اللحظـات التى أقضيها معك ، وتلك السويعات التى أخلو فيها بنفسى لأفكر فيك .

فقال الملك وهو يرمقها فى اعجاب :

ـــ جميل يا استر أن يستطيع الانسان أن يعيش فى ماضيه السعيد .

ورأت استر أن الفرصة مواتية لتنفذ الى غرضها ، فقالت :

ـــ ما ألذ تقليب صفحات الماضى يا مولاى ، ان بعض الحوادث اذا عشنا فيها بأفكارنا لتملؤنا نشوة أكثر من تلك النشوة التى شعرنا بها يوم عشنا مع تلك الحوادث فى واقع حياتنا .

فقال الملك وهو يعبث بيده فى شعرها السبط المتناثر على الوسائد فى روعة :

ـــ هذا حق يا استر .

فقالت استر وقد أفتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة :

ـــ ما رأيك يا مولاى فى أن نمضى ليلتنا فى ماضينا ؟

ـــ ماذا تقصدين يا استر ؟

ـــ أن نمضى هذه الليلة فى قراءة سفر الأيام ، فنبعث الى الحياة تلك الوقائع الرائعة التى طواها الزمن .

ـــ فكرة جميلة .

وأمر الملك غلمانه أن يحضرو سفر أخبار الأيام ، فلما أتوا به تناولته استر وأخذت تقرأ فيه ، والملك يصغى اليها شارد الفكر ، يتذكر حوادث الأيام . واستمرت استر فى القراءة حتى اذا بلغت قصة مردخاى وتلك المؤامرة التى كانت تدبر لاغتيال الملك تمهلت فى قراءتها ، حتى اذا انتهت منها قالت :

ـــ هذا رجل أسدى الى الدولة أجل خدمة .

فقال الملك :

ـــ هذا حق .

ـــ ماذا فعلت له يا مولاى ؟

ـــ لا أذكر يا استر أننا فعلنا له شيئا ، كل ما أذكره أننا منحناه بعض المال ، ماذا يقول الناس عنا ، اننا أخطأنا فى حقه ولا شك ، رجل ينقذ حياتنا ولا نكرمه ولا نطعمه ، هذا نكران !

فقالت استر وهى تطوقه بذراعها :

ـــ ليت الذين حولك يا مولاى مثل هذا الرجل الذى أفعم قلبه بالاخلاص .

وأحس الملك حرارة أنفاسها ، فقال فى حماسة :

ـــ غدا سنفكر ، أنا وهامان فى تكريم هذا الرجل .

فقالت استر ، وقد اختلطت أنفاسها بأنفاسه :

ـــ لى رجاء يا مولاى .

ـــ ماذا يا استر ؟

ـــ اذا أردت أن يكون رأى من تستشيره خالصا ، فلا تذكر له اسم من تريد تكريمه .

ـــ فما أذكر له ؟

ـــ سله عما يشير بفعله لرجل يسر الملك أن يكرمه .

أدار عبير أنفاسها رأسه ، فقال :

ـــ غدا يا استر نتحدث فى الأمر .

فغمغمت استر :

ـــ فى وليمة الغد .

وغابا عن كل شىء الا عن نفسيهما .

— ١٠ —

وافى ميعاد الوليمة التى أعدتها استر ، فأقبل أخشويروش وهامان . وما أدارت استر عليهما كئوس الخمر ، حتى تذكر الملك ما كان فى الليلة الماضية ، فقال لهامان وهو يرنو الى استر :

ــ بماذا تشير علينا يا هامان فى رجل يسرنا أن نكرمه ؟

كان هامان يشعر بحب الملك له ، فحسب أن الملك ينوى تكريمه لاخلاصه وتفانيه فى عمله لمصلحة الدولة ، وانه ما سأله هذا السؤال الا ليترك له فرصة الافصاح عما يحب وما يشتهى ليحققه له ، فقال هامان :

ــ أرى يا مولاى أن يكلف أحد الأشراف بالباس ذلك الرجل اللباس السلطانى ، وأن يقدم له فرس الملك ليركبه فى ساحة المدينة ، وأن ينطلق الشريف أمامه يهتف : « هذا جزاء من يرضى الملك عنه ، ويأمر بتكريمه » .

فقالت استر فى فرح :

ــ هذا هو الرأى يا مولاى ، يا لرجاحة عقل هامان !

وابتسم هامان فى خيلاء . وقال الملك :

ــ خذ اللباس والفرس يا هامان ، واذهب الى مردخاى ، ذلك اليهودى الجالس ببابى ، وافعل به كل ما قلته ، انه يسرنا أن نكرمه .

واحس هامان انقباضا ، فما كان يدور بخلده أن يكرم الملك يهوديا بعد أن أهدر دم يهود مملكته جميعا ، وفطنت استر الى عبوسه ، فافترت شفتاها عن ابتسامة خبيثة ، وقالت :

ـ ماذا يا هامان ؟ لكأنما أمر مولانا أدهشك ؟

فقال وهو يكتم غيظه :

ـ سأفعل ما أمرنى به مولاى .

خرج هامان وفى صدره أتون نار ، وذهب الى مردخاى ، وألبسه لباس الملك ، وأركبه فرسه ، وانطلق أمامه ينادى :

ـ هذا جزاء من يرضى الملك عنه ، ويأمر بتكريمه .

وتجمهر اليهود فى ساحة المدينة يهتفون فرحا ، وسار هامان يترنح يمكاد يموت من الكمد ..

ووفد الليل بهدوئه وسكونه وأسراره . بعث الملك فى طلب استر ، فأقبلت تخطر رقيقة كالنسيم ، ناعمة كالأفعى ، وارتمت فى أحضانه ، كأنما تلوذ به وتحتمى فيه ، فمرر يده على عنقها العاجى وعلى جسدها الترب ، وهمس فى وجد :

ـ ما أروع هذا العنق البديع !

ـ هذا العنق البديع يا مولاى يستعمل فيه السكاكين .

فقال أخشويروش مرتاعا :

ـ من الذى يجرؤ أن يمسه ؟ !

ـ من أساء استغلال عطفكم ورعايتكم .

ـ من يكون ؟

ـ هامان يا مولاى ، هامان الذى حرضكم على اليهود ، الذين أخلصوا لكم ، والذين ما كان لهم هم الا توطيد دعائم ملككم ، والذين لم يرتكبوا اثما ، ولم يفعلوا ذنبا الا أنهم أحبوكم .

فقال أخشويروش :

ـــ انى لا أفهم شيئا ، وما علاقتك أنت بهامان وبأمره بقتل اليهود ؟

ـــ اننى يهودية يا مولاى ، فاذا نفذت أمر القتل فيهم قطعت رأسى معهم . بحق حبى يا مولاى أستوهبك حيـــاتى وحياة شعبى .

ولفحت وجهه أنفاسها الحارة ، ورنت اليه بعينيها الجذابتين اللتين أصبح عبدا لهما ، فتحرك حبه ، فضمها اليه ، انه لا يطيق النأى عنها ، فمن هو هامان الذى يريد أن يفرق بينه وبينها ؟ ونسى الملك الغارق فى الخمر والشهوة ما أسداه هامان اليـــه وإلى مملكته ، فصاح بغلمانه :

ـــ اذا جاء هامان المعتوه ، فأدخلوه على .

— ١١ —

واقبل هامان ، فأسرع اليه أحد أعوانه يفضى اليه أن الملك حاقد عليه ، فعجب هامان ، واشتد عجبه ، فما دار بخلده أن يحقد الملك عليه ، ورأى أن يدخل على استر يسألها سبب ذلك الانقلاب ، وانه ليرجو أن يجد عندها عونا ، فقد أكرمته واصطفته على سائر الأمراء .

انطلق الى جناح الملكة ، واستأذن فى الدخول ، فأذنت له بعد أن بعثت الى الملك من يوسوس له أن هامان فى جناح الملكة . ودخل هامان وهو مضطرب ، وما ان وقع بصره على استر حتى قال فى صوت ينم عن المشاعر المشتعلة فى جوفه :

ـ بلغنى يا مولاتى أن الملك حاقد على ، ولا أدرى لغضبه سببا .

وصمت وانتظر أن تتكلم الملكة ، ولكنها لم تنبس بكلمة ، بل رمته بنظرة لم يرتح لها ، فملك نفسه ، وقال :

ـ ليتنى أعرف ذلك الذى مشى بالبهتان بينى وبين مولاى .

فهبت كنمرة ، وقالت فى قسوة :

ـ أنا يا هامان .

بهت ، وألجمته المفاجأة ، وطارت نفسه شعاعا ، وقال فى اضطراب :

ـ انت ، أنت يا مولاتى ؟ !

ـ نعم أنا يا هامان ، أنا استر اليهودية التى وسوست للملك أن يبيدها ويبيد شعبها ، حتى استجاب لوساوسك .

ـ مولاتى ، ما كنت أعرف أنك يهودية ؟

فقالت له فى سخرية :

ـ آه ! لو كنت تعرف ذلك لفرشت طريق اليهود بالورود .

ـ لا ، ما كنت أفعل الا ما فيه مصلحة مولاى ومصلحة بلادى .

ـ وماذا كنت تفعل ؟

ـ كنت أشير عليه أن يبيدهم ، لأن فى ابادتهم حياته وحياة شعبه .

ـ يا عدو اليهود أمقتك من كلّ قلبى ، امقتكَ بكل جارحة من جوارحى ، أمقتكَ مقتى للموت .

ـ يحز فى نفسى أن سقط الملك فى حبائلك ، انى حزين ،

حزين حتى الموت ، لأن أعداء هذه البلاد تسلطوا عليها ، وأصبح عبيد الأمس السادة الحاكمين .

ــ لن يطول حزنك يا هامان ، سـأريحك من آلام نفسك الخبيثة .

ودنا هامان منها ، وهو ينظر اليها شزرا ، فصاحت به :

ــ ابتعد عنى ، يا أبغض من وقعت عليه عيناى ، ابتعد .

وفتح الباب ، ودخل الملك وصوت استر يرن فى أذنيه . فثارت ثائرته ، ورأى هامان بالقرب ممن شـغف بها حبا ، فتحركت غيرته ، فصاح :

ــ يا للئيم الذى أكرمته فكفر بنعمتى ، ودخل على أهلى فى غفلة منى .

فهتف هامان فى توسل :

ــ مولاى ، أتوسل اليك أن تصغى الى .

ــ اخرس يا فاجر .

ودنت استر حتى التصقت بأخشويروش ، فصاح :

ــ ما كان لمن يتنكر لى أن يعيش .

ــ اننى يا مولاى خادمك الأمين .

ونادى الملك رجاله ، وصاح فيهم :

ــ خذوا هذا القذر واقتلوه .

ــ مولاى ! مولاى .

وانقض الرجال على هامان الأجاجى ، وخرجوا به ، فغمغمت استر فى راحة :

ــ الى الجحيم يا عدو اليهود .

- ١٢ -

قتـــل هامان ، فخلا الجو لاستر ، فأصبح الملك أطـــوع لها من بنانها ، تحركه كيف تشاء ، فكانت تنفذ أهدافها بين رشف الكئوس ، ورشف الثغور ، فمكنت لمرخادى فى القصر ، وقربته من الملك ، حتى أمر بمنحه ضياع هامان وقصره وأملاكه .

وظلت استر به حتى أقنعته أن ينقض أمره القاضى بقتـــل اليهـــود ، فدفع الملك بخاتمه الى استر ومردخاى ، فبعثـــا الى كتاب الملك وأمراهم ان يكتبوا الى الولاة أن الملك العادل أحشويروش قد عفا عن اليهود وأكرمهم ، وخصهم برعايته . وخرج الرسل على الخيل والبغال ، وانطلقوا الى الهند وفارس والبلاد الممتدة الى كوش ، يحملون أوامر من أصبح ألعوبة فى أيدى اليهود .

ولم تقتنع استر بما نالتـــه ، فحقـــدها على هامان لم يطفىء لهيبـــه المـــوت ، انهـــا تحس رغبـــة فى أن تبطش بكل ما يمت بسبب اليه ، فراحت تحرض الملك على قتل أهل هامان . فاستجاب لها الرجل المسلوب الارادة ، وبطش بأهل من كان أخلص الناس اليه .

وتحركت فيها روح الشر ، فجعـــلت تحـــرض اليهود على التنكيـــل بأهل البـــلاد ، لتنزل الرعب بقلوبهم ، فتمكن لأهلها فى الأرض ، فقام فى مملكة أحشويروش عهد من الارهاب ، فى ظل استر ومردخاى ، وفى غفلة من الملك اللاهى عن شعبه

بالجسد الترب ، الذى يحوى بين جنبيه روحا تهفو الى سقف الدماء .

وراح مردخاى يقدم إلى الملك أسرابا من العذارى ، ليشغله باللذة عن المظالم الواقعة فى ملكه ، فصارت المملكة الهائلة الممتدة من الهند وفارس وكوش مرتعا خصبا لليهود ، فرضوا عن استر وقدسوها ، ودونوا قصتها فى الكتب المطهرة !

ســـــالومى

(ان الذين يكفــرون بآيات الله ويقتــلون النبيين بغير حق ، ويقتــلون الذين يأمــرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ، أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين) .

« قرآن كريم »

— ١ —

الهدوء يلف كل شيء ، حتى كان زفيف النســـيم يسمع ، والضوء الخافت المنبعث من ذبالة ضعيفة ، يبدد الظلام ، ويفرش المكان بنور واه لطيف ، ترتاح اليه النفوس ، وكان للمكان قدسية وجلال ، انه محراب نبى من أنبياء الله .

ولاح فى الضوء الخافت اللطيف شبح فتاة ترتدى البياض ، كمت فى خشوع تبتهل الى الله ، وجرت الدموع على خديها من لرهبـــة والوجد ، وكان فى وجههـــا نورانية وصـــفاء . واقبل شيخ يسير الهوينى ، وقد نال منه الكبر ، يلوح فى وجهه التقى

والصلاح ، ودخل عليها زكريا المحراب ، فوجد عندها فاكهة فى غير أوانها . فتعجب وقال لها :

ــ يا مريم أنى لك هذا ؟

ــ هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب .

وراح زكريا يفكر فى أمره ، انه قارب الثمانين ولم يرزق ولدا ، وحز فى نفسه أن يبقى فردا وقد مسه الكبر ، وتمنى أن يهب الله له غلاما ، ولكن ما كان له أن يطمع فى ذلك وامرأته عاقر ، ووقع بصره على الفاكهة ، فأحيا ذلك موات الأمل فى نفسه ، ان الله الذى يرزق مريم الفاكهة فى غير أوانها ، قادر على أن يهب له ذرية ، على الرغم من أنه شيخ وامرأته عاقر .

ودخل محرابه ، وسجد فى خشوع ، وجعل ينادى ربه فى حرارة :

ــ يارب . يارب . يارب .

وصفت نفسه وتفتحت روحه . واحس كأن ينبوعا من النور تفجر فى جوفه ، فبدد الظلام الذى كان يحتويه صدره ، وشعر كأنما دنا من ربه ، فقال :

ــ رب ، انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم اكن بدعائك رب شقيا ، وانى خفت الموالى من ورائى ، وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا .

وأطرق خاشعا ، وفاض النور فى المحراب ، وسمع حفيفا خفيفا ، فتلفت ، فرأى ملكا كريما يقول فى صوت اخاذ :

ــ يا زكريا ، انا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سميا .

فرفع زكريا رأسه الى السماء ، وقال :

ـ رب ، أنى يكون لى غلام : وكانت امرأتى عاقرا ، وقد بلغت من الكبر عتيا ؟ !

قال الملك :

ـ كذلك قال ربك : هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا .

ـ رب اجعل لى آية .

ـ آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا .

وخرج زكريا على قومه فى المحراب ، يفيض وجهه بالبشر ، ويخفق قلبه من السرور ، ورمز الى قومه أن يسبحوا بكرة وعشيا ، فقد استجاب له ربه ، ووهب له يحيى .

ـ ٢ ـ

سار يحيى يقلب وجهه فى السماء ، ويمد بصره الى ملكوت الله ، فيحس رهبة وجلالا ، ويخشع قلبه ، ويعمل فكره ، كان يرى الله فى كل ما تقع عليه عيناه ، انه شب فى بيت النبوة ، فرأى أباه فى محرابه ، يعبد ربه ويقدس له ، فعرف الله ، وصار يهابه ويخشاه .

وانطلق وهو مشغول الى بيت المقدس ، فلمحه اترابه من الصبيان ، فهرعوا اليه ، وقالوا له :

ـ يا يحيى اذهب بنا نلعب .

فقال لهم وهو منطلق فى طريقه :

ـ ما للعب خلقت .

ودلف إلى بيت المقدس ، فرأى المجتهدين من الأحبار والرهبان وعليهم مدارع الشعر ، وبرانس الصوف ، وهم يعبدون الله فى خشوع ، فتفتحت نفسه ، وهفت روحه اليهم ، ووقف ينظر وقد شاعت البهجة فيه ، وسكنت الطمأنينة قلبه ، وأحس هدوءا عجيبا .

وبقى فى المسجد هانئا ، تهيم روحه بملكوت السماء ، حتى اذا عاد الى داره احتلت رأسه فكرة ، فأتى أمه وقال لها :

ـ يا أماه ، أنسجى لى مدرعة من شعر ، بونسا من صوف ، حتى آتى الى بيت المقدس ، وأعبد الله تعالى مع الأحبار والرهبان .

فنظرت اليه أمه وقالت :

ـ حتى يأتى نبى الله زكريا عليه السلام ، فأؤامره فى ذلك .

واقبل زكريا ، وتأهب ليدخل محرابه ، فجاءته زوجه وقالت له :

ـ أن يحيى قد طلب منى أن أنسج له مدرعة من شعر ، وبرنسا من صوف .

فالتفت زكريا الى ابنه وقال :

ـ يا بنى ، ما يدعوك الى هذا وانما أنت صبى صغير ؟

فنظر الصبى الى أبيه بعينين يشع منهما بريق الذكاء ، وقال :

ـ يا أبت ، أما رأيت من هو أصغر منى ذاق الموت .

فانشرح صدر زكريا وقال :

— بلى .
ثم التفى الى زوجه وقال :
— انسجى له مدرعة من الشعر ، وبرنسا من الصوف .

— ٣ —

جلس فيليبس ملك أورشليم على عرشه ، وجلست الى جواره زوجته هيروديا ، وراحت ابنتهما سالومى تنظر من النافذة ، ترقب طرقات المدينة العتيقة . كانت هيروديا رائعة الحسن ، أندى من الندى ، وأنضر من أزهار الربيع . كان جمالها أخاذا ، يعبث بالأفئدة ، وتهفو اليه القلوب .

واقبل هيرودس أخو الملك ، وأخذ بأسباب الحديث ، كان يحادث أخاه ، ويرنو الى هيروديا فى اعجاب ، ويرمقها فى اشتهاء ، وكانت عيناه الوالهتــان تتلاقيان وعينيها ، فكانت تحس حرارتهما ، وتفهم لغتهما ، فترف على شفتيها ابتسامة ، وتتألق عيناها ببريق السرور والارتياح .

واقتربت سالومى من هيرودس ، فمد يده وضمها اليه ، وقال وهو يرنو الى أمها فى هيام :

— يا لروعة حسنك ! جمالك يا سالومى قاهر جبار ، يهز أوتار القلوب ، ويزيد خفقات الأفئدة بين الضلوع .

فأشرق وجه هيروديا ، وقال فيليبس وهو يضحك :

— دع يا هيرودس الفتاة ، لكأنك عاشق برح به الغــرام .

فقال هيرودس فى حرارة ، وهو ينظر الى وجه زوجة أخيه الفتان :

ـــ انها يا فيليبس قطعة رائعة لأقدر فنان .

وهام هيرودس بزوجة أخيه حيا ، وبادلته هيروديا ذلك الغرام ، فراحا يتلاقيان ، وملك حبه لها حواسه ، وسيطر عليه ، فلم يطق أن يشاركه فيها انسان ، ففكر ودبر ثم قابل هيروديا ، وناجاها وهمس لها بما عقد عليه العزم ، فلم تثر ولم تفزع ، بل شجعته على أن يقدم على انفاذ ما دبر ، فقد كانت امرأة تهوى المغامرات .

وفى الليلة الموعودة ، تدثر أعوان هيرودس بالظلام ، وانسلوا الى القصر وانطلقوا الى مخدع فيليبس ، فألفوا كل شيء هينا ميسورا ، فقد دبرت هيروديا الأمر ، وأحكمت التدبير ، كان باب مخدعه مفتوحا ، وما كان هناك أحد من الحراس .

وانقض الرجال على فيليبس وشدوا وثاقه ، وقادوه الى سجن القصر ، وما تنفس الصبح حتى كان هيرودس متربعا على عرش أورشليم والى جواره هيروديا .

ـ ٤ ـ

راح يحيى يهيم فى البرارى ، يأكل من ورق الأشجار ، ويرد ماء الأنهار ، ويتغذى بالجراد ، ويستر جسمه مدرعة من الشعر ، وعلى حقوية منطقة من جلد ، وكان يدخل بيت المقدس ينقل الى الناس أوامر السماء ، ويبشرهم بقرب ظهور المسيح ، ابن الانسان ، منقذ البشرية .

سار فى مسالك المدينة ، وقد التف حوله من صدقه ، وراح يقـــول :

ـــ توبوا فقد اقترب ملكوت السماء .

وعلم يحيى ما فعله هيرودس بأخيـــه ، فغضب ، وأخذ يقول ان هيروديا لا تحل له ، واشتد فى تقريع المرأة ، وكان كلما قابل جماعة من بنى اسرائيل أعلن سخطه على ما اقترف مغتصب الملك والزوجة ، وبلغ هيرودس ما يقول يحيى ، فثار ، ولكنه لم ينفس عن ثورته ، كان يخشى أن يمد يده الى يحيى بأذى ، خشية أن يثور الشعب لنبيه .

وحقدت هيروديا على يحيى ، فطفقت تحرض هيرودس على البطش به ولكنه كان يتريث هيبة منه ، وخوفا من أتباعه ، وفكر فى أنه لو قضى على فيليبس فقد تخفف حملة يحيى الشديدة التى تهدد ملكه ، وتزعزع سلطانه .

وبعث هيرودس جلاده الى السجن ، وما خرج منه حتى كان فيليبس جثة هامدة ، وذاع نبأ قتله ، فاشتد يحيى فى لوم هيروديا الفاجرة ، فأخذت تضغط على هيرودس لينتقم لها من ذلك الذى مرغ اسمها فى الأوحال ، فلم يجد مفرا من أن يذعن لها ، فأرسل جنوده فى طلبه ، فلما مثل بين يديه قال له :

ـــ الا تكف عنا ؟

ـــ حتى تكف عن معصية الله .

ـــ وكيف ؟

ـــ أن تهجر الفاجرة .

فثارت هيروديا وصاحت :

ـــ اقتلوه ، اقتلوه .

وقال الملك :

ـــ ولماذا أهجرها ؟
ـــ لأنها لا تحل لك .
وظهر فى وجه هيرودها الغضب الشديد ، وصاحت :
ـــ اقتلوه .. اقتلوه .
وقال الملك لحراسه :
ـــ ألقوه فى غيابات السجن .

— ٥ —

راحت سالومى تمرح فى القصر كفراشة طليقة ، وفى يوم من الأيام بينا كانت بالقرب من السجن ، وسمعت صوتا عميقا يهتف فى نبرات تهز القلوب :

ـــ فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه ، هـو الذى يأتى بعدى ، الذى صار قدامى ، الذى لست بمستحق أن أحل سيور حذائه .

ووقفت سالومى تفكر فى ذلك النبى الذى رمى أمها بكل سوء ، فأحست رغبة فى أن تراه ، ولم تستطع أن تقاوم اغراء الفكرة ، فاتجهت إلى حارس السجن ، وقالت له :

ـــ افتح هذا الباب .
ـــ لماذا يا مولاتى ؟
ـــ أريد أن أرى ذلك النبى .
ـــ محال أيتها الأميرة ، فقد حرم الملك أن يراه انسان .
ـــ كيف هو ؟ أهو شيخ كبير ؟

ـــ لا يا مولاتى ، انه شاب رائع الحسن .

فدنت سالومى من الحارس ، وقالت فى دلال :

ـــ افتح الأراه .

ـــ مولاتى .. مولاتى ..

ـــ افتح ، ولن يعلم الملك شيئا .

وفتح الحارس الباب ، فهبطت سالومى درجات ، والفت نفسها فى حجرة ضيقة ، وقد وقف فى ركن منها يحيى ، بقامته المديدة ، وقسماته الجميلة ، ونظرت اليه ، فبدا فى وجهها العجب . كان أبيض البشرة ، واسع العينين ، حسن الصورة ، فمس حسنه شغاف قلبها ، فدنت منه خافقة الفؤاد ، فرفع رأسه ، وقال :

ـــ من أنت ؟

ـــ أنا سالومى ابنة هيروديا أميرة الأردن .

ـــ ابتعدى عنى ، فقد ملأت أمك الأرض عصيانا .

ـــ ما أحلى صوتك يا يحيى .

ودنت منه ، وهى تكاد تلتهمه بعينيها ، فارتد خطوات ، وهو يقـــول :

ـــ لا تقتربى منى ، اذهبى ، اذهبى .

وأحست شغفا فى أن تغرى نبيا ، فقال وهى تتثنى ، وترنو اليه فى وله :

ـــ ما أجملك يا يحيى !

ـــ غضى من بصرك يا فاجرة .

ومدت يدها تتحسس وجهه ، ولفحت أنفاسها الحارة جيده ، فنفر منها وصاح :

ـــ ابتعدى عنى ، ابتعدى عنى .

وثبتت عينيها على فمه ، وقالت :

ـــ ما أروع ثغرك يا يحيى ، تعال وضع شفتيك على شفتى .

ـــ اذهبى .. اذهبى .

ـــ أنصت يا يحيى ، أنصت . ألا تسمع دقات قلبى ، ان الفؤاد يخفق بحبك ، وشفتى ترتجفان ، وجسدى استعر نارا ، قبلة واحدة تطفىء اللهيب الذى أشعلته عيناك ..

وأشاح بوجهه عنها ، وهى تدنو منه وتقول :

ـــ قبلنى يا يحيى .

ـــ اخرجى يا سالومى .. اخرجى ..

ـــ قبلة واحدة تطفىء النار التى تأججت فى صدرى .

ـــ اغربى عن وجهى يا فاجرة .

وبقيت سالومى تتثنى وتتأود ، ويحيى ينفر منها ، وخرجت أخيرا مطأطئة الرأس ، منقبضة الصدر ، دامية النفس ، تحس ذلة الانكسار ، وقد اندلعت النار فى أحشائها . جاءت لترى النبى الذى تمقته أمها : فخرجت من عنده تحس طعم الصاب فى فيها ، فقد أشهتت النبى الجميل ، وحاولت أن تضع شفتيها على شفتيه ، ولكنه صدها أقسى صد ، وترك نار الصبابة ترعى فى الصدر ، وتضنى الفؤاد .

كان اليوم عيدا من أعياد القوم ، فأقبل الى القصر الأشراف وكبار رجال الدولة والأعيان ، وانتظم عقدهم ، فجعل الملك وهيروديا وضيوفهما يعبون الخمر ويضحكون ، وجلست سالومى ساهمة ، قد غاضت نضارتها ، فقد جرحت هزيمتها كبرياءها ، وجعلت ابخرة الحقد تنتشر فى صدرها فتخنقها .

وارتفعت ضوضاء المجتمعين ، وراحت ضحكاتهم المخمورة ترن فى جنبات القصر ، وبلغ يحيى فى سجنه أن المسيح قد ظهر ، وأنه احيا الموتى ، وابرأ الأعمى والأصم والأبرص ، فصاح :

ــ العمى يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يطهرون ، والصم يسمعون ، والموتى يقومون ، والمساكين يبشرون .

ورن صوته فى القصر ، فصمت الجميع ، وقال أحدهم :

ــ ما هذا ؟

فقال هيرودس :

ــ انه يحيى .

ــ ماذا يقول ؟

ــ لا أدرى .

فقالت هيروديا فى ضيق :

ـــ انه يهرف .

وبلغ صـــوته آذان سالومى ، فزاد امتقاعها ، وسرعان ما عادت الضوضاء ، وانطلق القوم فى مرحهم .

ولاحظ هيرودس انطواء سالومى على نفسها ، فقـــدم اليها كأسا من الخمر فرفضتها ، فقال لها :

ـــ اشربى .

ـــ لا يا مولاى .

ـــ اشربى وامرحى يا سالومى ، فاليوم عيد .

فافتر ثغرها عن ابتسامة باهتة ، فقال لها :

ـــ ارقصى يا سالومى .

ـــ لا أشعر برغبة فى الرقص يا مولاى .

ـــ أرجو أن ترقصى .

ـــ لا أستطيع .. لا استطيع .

فقال لها فى اغراء :

ـــ اذا رقصت لى أعطيتك ما تشائين ..

فخطرت لها فكرة . انها تستطيع أن تثأر من ذلك الذى جرعها كأس الهوان ، فرنت الى الملك وقالت :

ـــ حقا ؟

ـــ أقسم لك يا سالومى .

ـــ بماذا تقسم ؟

ـــ أقسم لك بآلهتى ما سألتنى شيئا الا اعطيتك .

ـــ لقد أقسمت .

ـــ أقسمت يا سالومى وما حنثت فى قسمى قط .

وغابت سالومى قليلا : وعادت فى غلالاتها الســبع ،

وانسابت الأنغام العذبة ، فراحت ترقص وتغنى فى خفة الطيف . وأخذ الجميع يرمقونها فى اعجاب ، وقد حبست الأنفاس . كانت ترقص فى حرارة تتدفق فى عروقها نار . وانبسطت الأسارير ، وفاض وجه الملك بالبشر ، وسالومى تميل ، فتميل معها القلوب ، وما انتهت من رقصتها حتى هرعت الى الملك ، وانحنت أمامه ، فقال لها فى انشراح :

— انهضى لأمنحك ما تطلبين ، لقد أدخلت يا سالومى على نفوسنا السرور . ماذا تريدين ؟

— هدية فى طست من فضة .

فظهرت الدهشة فى وجه الملك ، وقال :

— هدية فى طست من فضة ، وما هذه ؟

— رأس يحيى .

فاربد وجه الملك ، وتهلل وجه هيروديا ، وقالت :

— أحسنت الاختيار يا فتاتى ، انها خير هدية فى هـذا العيد .

فقال الملك فى جزع :

— لا . لا يا سالومى . لا تسألينى ذلك .

— أريد رأس يحيى فى طست من فضة .

— لا .. لا .

— لقد أقسمت . أقسمت قسما عظيما .

— أقسمت يا سالومى ، ولكن أتوسل اليك أن تسألينى شيئا آخر .

— لا أريد الا رأس يحيى .

— لا ...

فقالت هروديا :

ـــ لقد أقسمت ، بر بقسمك .

ـــ اسكتى .

فقالت سالومى فى اصرار :

ـــ أرجو رأس يحيى .

ـــ ما هذا يا سالومى الذى تطلبين ؟ ان ما تطلبين مريع !

ـــ أعطنى رأس يحيى .

وحسبت هيروديا أن سالومى تطلب رأس يحيى اكراما لها ، فقالت :

ـــ أعطها ما طلبت ، أعطها رأس من سب أمها ، ولطخها بالعار !.

ونظرت الى ابنتها فى شكر ، وما دار بخلدها أن سالومى تطلب رأسه لتنتقم لما نالها من هوان ، لعل النار التى استشرت فى جوفها تخمد ، ولعل القلب الذى كان ينزف حقدا يهدأ ، ولعلها تستطيع أن تلثم الفم البارد الذى عز عليها أن تلثمه وهو نابض بالحياة .

وانكمش هيرودس فى عرشه ، ونزل به هم ثقيل ، وقال لحراسه فى صوت خفيض :

ـــ أعطوها ما طلبت .

وخرج الحراس ، وساد القاعة صمت رهيب ، ومر الوقت بطيئا بطيئا ، وقد استولى على الجميع رهبة وقلق . ثم عاد الحراس يحملون طستا من فضة به رأس يحيى بن زكريا ، وقدموه لسالومى . فنظرت الى فمه وقد

اتسعت عيناها ، وأدنت شفتيها لتلثم شفتيه ، ولكن الأرض زلزلت ، وانقضت صاعقة من السماء ، فسقطت سالومى صريعة ، وسقط الرأس بعيدا ، فقد حرم عليها أن تلثم شفتيه حيا وميتا .

القصص الديني

(قصص من الكتب المقدسة)

نداء من السماء

— ١ —

سار « شطا » فى ردهات القصر شارد اللب ، مبلبل الفكر ، منقبض الصدر ، يمد بصره الى لا شىء ، وقد ارتسمت الحيرة فى وجه . وكان شابا تدل قسماته على الذكاء ورجاحة العقل ، انطلق دون أن يفطن الى الخدم الذين كانوا ينحنون له تحية واكراما اذا ما أقبل أو أدبر ، ودون أن تجذب بصره تلك التماثيل الرائعة الفخمة ، التى كانت تزين ردهات القصر العظيم ، فقد كان واجما منطويا على نفسه ، انه يحس اضطرابا وقلقا ، فقد كره عيشته ، وعافت نفسه كل شىء ، ودلف الى غرفة كانت من أحب غرف القصر الى قلبه ، ولطالما اجتمع فيها بعلماء المدينة ، وطالما أصغى اليهم فى نشوة ، وطالما أخذ واياهم بأطراف أحاديث لذيذة كانت تنعش روحه ، وتعيد اليه هدوءه .

ألفى العلماء مجتمعين يريدرون النقاش بينهم ، فجلس كما اعتاد أن يجلس ، وأعارهم سمعه ، وما انقضى قليل وقت حتى شرد فكره ، وعاد اليه وجومه وحزنه ، وسرعان ما فطن الى شرود ذهنه ، فراح يجمع شتات أفكاره ، ويحاول أن يلقى السمع اليهم ، وأن يتتبع حديثهم فى

شغف ، ولكن ما مرت لحظات حتى أحس ضيقا وانقباضا ، فنهض متبرما وانصرف ساهما مفكرا كما أقبل ساهما مفكرا .

وأغلق عليه بابه ، وراح يفكر فى نفسه وفيما حوله ، وأرخى لخياله عنانه ، فألفى نفسه سجين القيود ، وما أبغض القيود الى النفس ، فما تخلف الا القلق والحيرة والفزع والخوف والأحزان ، انه يود أن يكون طليقا من كل قيد . فلم لا يهجر القصر ، وينبذ المال ، ويدع السلطان ، ليعيش وحيدا بعيدا طليقا ، ينعم بالراحة وهدوء البال ؟!

وأقبل البامرك تحف به بطانته ، وسأل عن ابنه ، فقيل له انه فى جناحه وقد أغلقه عليه ، فأطرق البامرك ، وطافت به سحائب من حزن . فان ابنه قد ركن الى الوحدة ، وأصبح يغلق عليه بابه ، لينفرد بنفسه يحادثها وتحادثه . ان نفور شطا واعتزاله أصبح يقلقه ، وان وجومه صار يحزنه ، فلو أن ابنه كان كلداته من الشباب يسر بلذات الجسد لهان الأمر ، ولبعث اليه بالجوارى الفاتنات ، وبالسرارى اللاتى يأخذن باللب ، ويشغلن القلب ، ولكن ابنه أعرض عن كل شىء . وجعل البامرك يعجب فى نفسه لوجوم ابنه ، واغراقه فى التفكير ، فما كان لمثله أن يكتئب أو يفكر ، فالدنيا لهم باسمة ، بسطة فى العيش ، ومال موفور ، وخدم وحشم ، وسؤدد وسلطان ، انه ابن حاكم دمياط ، وابن خال حاكم مصر المقوقس العظيم !

وسار البامرك حتى اذا ما بلغ باب ابنه طرقه فى رفق ، ففتح شطا الباب ، فلما رأى أباه ابتسم ابتسامة ، كانت أقسى على قلب الأب من الدموع ، فزادت من آلامه ، فقد

كانت ابتسامة ساهم واجم ، لا تعرف نفسه الراحة أو الهدوء . واقترب البامرك من ابنه ، ولف ذراعه حوله ، ورنا اليه رنوة كلها عطف ، وكلها حنان ، وقال له فى صوت متهدج :

ــ ما بك يا بنى ؟

ــ لا شىء .

ــ فما بالك تفر من الناس وتغلق عليك بابك ؟

ــ ضقت ذرعا بالناس وتفاهاتهم .

ــ اخرج الى القصر يا بنى واختلط بمن فيه تذهب عنك وحشتك ، ويعود اليك هدوءك .

ــ سئمت القصر ومن فيه .

ــ أخرج الى الصيد وروح من نفسك تجد لذة وشفا وسعادة .

ــ هيهات ! ما لى فى اللهو من أرب .

ــ وما تريد ؟

ــ أن تأذن لى بأن أبنى صومعة أتفرد فيها .

ــ تبنى صومعة لتتركنا ! ؟

ــ ان روحى تهفو الى شىء ونفسى تتشوف له ، ولكنى لا ادرى ما هو ، وكل ما أدريه انه ليس هنا فى القصر ، فدعنى احيا حياتى .

ــ شططا ، ولدى .

ــ دعنى يا أبت أذهب ، دعنى ان روحى تعذبنى .. تضنينى .

فضمه البامرك الى صدره فى وله وحنان ، وقال له فى توسل :

ــ لا يا شطا ، لن أدعك أبدا أبدا ، انى لا أطيق فراقك .

ــ انى أحس أن روحى هنا حبيسة ، ولن تهدأ حتى تهيم طليقة ، لتتصل بالكون .

ــ ابق من أجلى يا شطا . أما كفانى اليوم أن أعلم أن العاصمة قد سقطت فى أيدى العرب المغيرين ، حتى تأتى أنت لتزيد فى كربتى ؟ !

فخفض شطا بصره ، ولم ينبس بكلمة ، ونهض البامرك وجذب ابنه من يده ، ليخرج به الى القصر .

ــ ٢ ــ

انتشرت الجيوش الاسلامية فى ربوع مصر تضع يدها على مدينة اثر مدينة ، بين فرح الأهلين واغتباطهم ، فقد كانوا قوما عدلا ، وما كانوا بفاسقين . وأخذ الناس يتناقلون القصص العجيبة عن الغزاة الفاتحين ، وانتشرت أنباؤهم حتى بلغت دمياط ، فجعل شطا ينصت الى ما روى عنهم فى اهتمام وانتباه ، ويستفسر عن ذلك الدين الجديد الذى جاءوا به لينشروه على العالمين . انهم قوم متواضعون رحماء لا يريدون عرض الدنيا وزخرفها ، ولكنهم يبغون وجه الله . انهم على تواضعهم أصحاب مثل عليا يخوضون المهالك لتحقيقها ، ويجودون بأرواحهم راضين مطمئنين فى سبيلها . انهم يحبون الموت حبهم للحياة .

وأخذ شطا يتقصى اخبارهم فى شغف ، ويفكر فيهم وفيما جاءوا به ، فلا يزداد الا عجبا واعجابا . وفى يوم وفد

الى القصر رجل من رجال المقوقس الذى فروا بعد سقوط حصن بابليون ، فهرع شطا اليه ، ليستمع الى أنباء أولئك الذين أصبحوا شغله الشاغل ، وراح الرجل يقص نبأهم ، فما كان لمصر حديث غيرهم ، وشطا يستمع فى رضا . قال الرجل فيما قال :

— انهم فى الليل رهبان ، وفى النهار فرسان ، اذا رأيتهم فى سكون الليل يدعون ربهم ، ويصلون صلاتهم ، حسبتهم ملائكة ابرارا ، واذا رأيتهم فى النهار فى حلبة القتال يطلبون الموت فيفر منهم ، حسبتهم شياطين مردة .

وزحفت جيوش المسلمين تطلب دمياط ، فحصن البامرك البلد ، وجمع الجيوش ، وتأهب للقاء ، واجتمع بأرباب دولته ، وكان عندهم حكيم يثقون به وبرأيه ، فأرسل البامرك فى طلبه ، فلما جاء قال له :

— أيها الحكيم العالم ، ما الذى تشير به علينا فى أمر هؤلاء العرب ؟

— أيها الأمير ، ان هؤلاء القوم لا تذل لهم راية ، ولا تلحق لهم غاية ، وقد فتحوا البلاد ، وأذلوا العباد ، واشتهر امرهم ، وعلا ذكرهم ، وفشا خبرهم ، وعلت كلمتهم ، ولدانت بالأرض دعوتهم ، فما احد يقدر عليهم ، وما نحن بأشد من جيوش الشام ولا أمنع بلدا ، وهؤلاء القوم أيدوا بالنصر ، وان الرحمة فى قلوبهم ، فساهدهم ، فما عاهدوا عهدا فخانوا ، ولا حلفوا يمينا فكذبوا ، وقد بلغك ما هم عليه من الدين والصيانة والصدق والأمانة ، والرأى عندى أن تصالحهم لتنال بذلك الأمن ، وحقن الدماء ، وصون الحريم ، ويدفع الأمر العظيم .

فثارت ثائرة البامرك ، فان الحكيم ليبث روح الهزيمة فى القوم ، فاستل سيفه ، وقطع به رأسه ، وصاح فى القوم أن يتأهبوا للحرب .

وجاء الليل يمد أرديته السود ، وانسل شطا الى معسكر المسلمين ينظر ، فرأى الأعراب فى ثيابهم البيض يرتلون القرآن ترتيلا ، ويبتهلون الى الله فى خشوع ، واستمر يرقب ما يجرى فى المعسكر فألفى بساطة رائعة تأخذ بمجامع القلوب ، فتفتحت نفسه ، وغشيته طمأنينة وهدوء ، وعاد شطا الى معسكره متسللا تراوده أفكار وأحلام .

وطلع الصباح فخرج المصريون للقتال ، وكان البامرك على رأس جيشه ، وعن يمينه شطا يرقب الأعراب كالمشدوه ، واضطربت نفسه ، وخفق قلبه فى صدره ، وشخص الى السماء ببصره فرأى كأنما نور عظيم يسقط على عسكر المسلمين ، فصاح وسقط عن فرسه ، فارتاع أبوه وجميع عسكره من تلك الصيحة ، فلما أفاق قال له أبوه فى اضطراب :

ــ ما وراءك يا بنى ؟

فقال شطا فى يقين :

ــ ظهر والله الحق .

وحرك جواده وقال :

ــ أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله .

والتفت الى الرجال وقال :

ــ من أحبنى من رجالى وغلمانى فليتبعنى .

وانطلق الى صفوف المسلمين وقد ألقى سلاحه ، واذا

بألــف من المصريين يتبعــونه ، ويلحقــون بـــه ، ويلقــون بأسلحتهم .

وتطلع البامرك الى ابنه ورجاله فى ذهول ، ومضت مدة قبل أن يفيق الى نفسه ، ولما استرد لبه الذاهل بعد تلك المفاجأة المباغتة قال :

ـــ والله ما فعل ولدى شطا ذلك الا وقد رأى الحق .

وحرك جواده ، وسار الى صفوف المسلمين ، فلما نظر أرباب دولته ذلك قالوا :

ـــ اذا كان الأمير وولده قد أسلما ، فما وقوفنا !

وانتشر الاسلام فى دمياط دون أن تراق قطرة دم .

ـــ ٣ ـــ

فتحت دمياط ، واعتنق البامرك الاسلام وتعصب له ، وشاء ان يعمل على نشره ، فالتفت الى شطا وقال :

ـــ هذه تنيس بالقرب منا ، وهى جزيرة ، ولا يمكن التوصل اليها الا فى المراكب ، والصواب أننا نكاتب صاحبها أبا ثوب ، وندعوه الى الله ، والى دين نبيه ، فان أجاب ، والا قصدناه والله ينصرنا .

فقال شطا :

ـــ هذا هو الرأى ، وأنا أكون الرسول اليه بنفسى .

فقال البامرك :

ـــ اعزم يا بنى على بركة الله وعونه .

وجهــزت المــراكب وركب شــطا وأربعــة من غلمــانه

الخــواص ، فلما نظر ذلك يزيد بن عامر صـــاحب رسول الله قال :

ــ وأنا أسير معك الى صـــاحب تنيس ، فانه لو سألك عن ديننا ومعالمه لم يجد عندك ما يشفى غلته ، ونحن بحمد الله ما فينا من يتكبر ولا يتجبر ، وما طلبتنا الا الآخرة ، والعمل بما يقربنا الى الله .

واقلع المركب بشـــطا ويزيد حتى اذا ما اقترب من الجزيرة أسرع الحرس اليهما ، فلما رأوا فيها بدويا أظهــروا عجبهم ، وسألوا شطا :

ــ من أنت ؟

ــ أنا ابن البامرك صاحب دمياط ، ومعنا هذا الرجل من أصحاب رسول الله ، وقد جئناكم رسلا .

فأرسلوا واحدا منهم يستأذن لهم ، فأذن لهم أبو ثوب ، فنزلوا فى الزورق ، رلما بلغوا اليابســـة وجـدوا أبا ثوب قد أرسل لهم دواب ليركبــوها ، فامتنــع يزيد من الركوب ، ووافقه شطا على ذلك ، وساروا كلهم راجلين الى أبى ثوب .

وبلغــوا القصر ، فاخـــترقوا مماره حتى دخلوا على أبى ثوب ، واذا به فى حشمه وخدمه وزينته ، والحجاب والغلمان بين يديه ، فلما رآهم مقبلين نظر اليهم شزرا ، ثم أعرض عنهم فى عجرفة وكبرياء ، ولم يأذن لهم بالجلوس ، فلم يجسر أحد من جماعته أن يأذن لهم ، فلما رأى يزيد بن عامر ذلك لم يغضب ولم يثر ، بل قرأ فى هدوء : (ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين) .

وجلس ، فجلس شطا الى جواره ، وراح يزيد يعـــرض

على أبى ثوب فى ثقة : الاسلام أو الجزية أو القتال ، فغضب أبو ثوب ، ولكنه كظم غيظه ، وأخذ بأطراف الحديث مع يزيد ، واستمر الأخذ والرد ، والجذب والشد ، وأخيرا انصرف يزيد هو ومن معه الى دمياط ، وقابلوا البامرك ، فسألهم عما فعلوا ، فقال يزيد :

ـ قال أبو ثوب انه سوف يعرض دين الاسلام على أهل جزيرته وأصحابه وأهله ، ويبنى المساجد ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، فقلت له : ان أنت فعلت ذلك رشدت ، وان نافقت فان ربك لبالمرصاد .

فأطرق البامرك قليلا ثم غمغم :

ـ والله لقد خدعكم بخديعته ، ورماكم بسهم مكيدته .

فقال يزيد :

ـ (ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين) .

وانقضت أيام ، ووصل الى علم المسلمين أن أبا ثوب جمع جندا من سائر الجزائر وأنه قادم عليهم ، فلما سمع البامرك بذلك قال ليزيد :

ـ ما الذى ترى من الرأى فى أمر هذا العدو ؟

ـ نستعين بالله ، ونتوكل على الله ، ومن قاتلنا قاتلناه .

وأرسل البامرك شطا الى البرلس ودميرة وطناح يجمع الرجال ، فانطلق شطا يجند الجيوش ، فجاءوا من كل صوب ، وطلب يزيد من عمرو بن العاص مددا .

نفر الى أبى ثوب العساكر ، فأخرجهم بظاهر تنيس ، وعداهم فى المراكب ، وأتوا نحو دمياط ، فألفوا جيش البامرك على أهبة القتال ، فوقف الجيشان وجها لوجه ،

وبرز شطا للنزال ، فقتل رجالا ، وجـدل أبطالا ، ونشعبت المعـركة ، واسـتمرت رهيبـة حتى خيم الظلام ، فتحاجـز الجيشان ، وراح شطا يصـلى لله ، ويدعـوه فى حـرارة وابتهـال حتى مضى اكثر الليل فاضـطجع ، فلما كان وقت الغلس ، وقرب الصبح وتنفس ، استيقظ شطا وهو باكى العين ، فقال له أبوه :

ـ يا بنى ، ما الذى أبكاك ؟

ـ انى لك مفارق .

فبان القلق فى وجه البامرك ، وقال :

ـ أعوذ بالله يا بنى ، ما هذا الكلام ؟

ـ رأيت شيئا فى منامى .

ـ لعله أضغاث أحلام .

ـ لا والله ما هى أضغاث احلام . انى رأيت فى منـامى كأن أبواب السماء قد فتحت ، وأضـواء قد سطعت ولمعت ، ثم رأيت ملائكة سـجودا على جبـاههم لا يقومون ، وركعـا لا ينتصبون ، وقياما من هيبة ربهم لا يقعدون ، باكين لا تجف لهم دموع ، ثم رأيت قبـة من زمـرد أخضر ، وفيها قناديل من الجوهر ، وهى تشع بالأنوار ، وتوقد من غير نار ، وفيها اربعون حوراء ، عليهن حلل ما رأيت قط مثلها ، ولا أبصرت شكلها ، بوجوه مشرقة باسمة ، تفتن من رآها . فصاحت بى احداهن ، وقالت : يا مفتونا بدار الدنيا ، أما آن لك أن تذكرنا ! ان مهرنا منك الجهاد .

وصمت شطا ، وشخص ببصره الى السماء كأنما يتطلع الى شىء ، وقال البامرك :

ـــ أعلم يا ولدى أن المنام قد يصدق وقد يكذب ، فلا تشغل نفسك بما رأيت .

ـــ لا والله يا أبت ، ما بقى لى فى الدنيا طمع .

وصلى شطا فى اطمئنان ، وما طلع الصبح ولاح ، حتى تأهب للخروج الى الحرب ، فتعلق به ابوه دامع العين ، وقال له :

ـــ يا بنى ، بحقى عليك لا تبلنى بفراقك .

ـــ دع عنك العتاب .

فضم البامرك ابنه اليه فى وله وقد سحت العيون ، وخفقت القلوب فى الصدور ، انه الفراق ، وهمس البامرك فى أذن ابنه فى صوت مخنوق بالبكاء :

ـــ يا بنى ، ان صح منامك فاذكرنا عند ربك .

وبرز شطا للقتال كليث فى أكمة ، ودعا للبراز ، فخرج اليه واحد فقتله ، وثان وثالث حتى قتل اثنى عشر فارسا ، فلما رأى أبو ثوب ما فعل شطا بفرسانه لم يطق صبرا ، فخرج اليه بنفسه ، وكان فارسا صنديدا ، ودار القتال بينهما رهيبا ، لا هوادة فيه ولا رحمة ، واستمر نصف نهار ، فعطش شطا ، ولاح له فى السماء القبة التى رآها فى المنام ، والحوراء التى قالت له : يا مفتونا بدار الدنيا ، أن آن لك أن تذكرنا ، وفى يدها كأس ، وكأنما سمعها تهتف به :

ـــ يا شطا هذا شراب من شرب منه لا يسقم ولا يفيق .

فتوقف عن القتال ، ورفع بصره الى السماء كالمشدوه ،

فعاجله أبو ثوب بطعنة فى صدره ، فأطلع السنان من ظهره ، فخر صريعا .

رأى البامرك مقتل ابنه ، فأحس نارا تشوى كبده ، وحمل على الأعداء حملة منكرة ، تبعه رجاله وأقبل مدد عمرو بن العاص ، فانهزم جيش الأعداء ، وأخذ أبو ثوب أسيرا وأتى البامرك شطا فاذا به يبتسم ويتطلع الى السماء ، فطأطأ البامرك رأسه ودمعه ينهمر ..

هــــاروت وَ مـــــاروت

- ١ -

اجتمعت ملائكة فى السماء تتهامس ، فطفقوا يتذاكرون ما وقع قبل أن يخلق الله آدم .

قال الله لملائكته :

ــ انى جاعل فى الأرض خليفة .

فقالت الملائكة :

ــ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟

قال لهم :

ــ انى أعلم ما لا تعلمون .

وها هى أعمال البشر تصعد الى السماء دكناء ممعنة فى الدكنة ، خبيثة كل الخبث ، محملة بالآثام والأوزار ، فقد ساد بين الناس اهراق الدماء والظلم والفسق والكذب والرياء ، وها هم خلفاء الله فى أرضه قد أشركوا بربهم ، فجعلوا يعبدون أصناما وأوثانا ، يمضون نهارهم فى لغو ولعب ، ويقضون ليلهم فى لهو وعبث ، يقبلون على الشهوات اقبالا ، ويلغون من الدنايا ولوغا ، كأنما يتنافسون فى المعاصى ، ويتسابقون فى الخطايا .

وظل الملائكة يسخرون وأغرقوا فى السخرية ، وراحوا يعيرون بنى آدم بذنوبهم ، ينكرون عليهم فعالهم ، حتى قالوا :

— هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء فى الأرض واخترتهم فهم يعصونك !

فقال تعالى :

— لو أنزلتكم الى الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم ، لفعلتم مثل ما فعلوا .

فقالوا فى انكار :

— سبحانك ربنا ما كان ينبغى أن نعصيك .

— اختاروا ملكين من خياركم .

فاختاروا هاروت وماروت وكانا أورعهم وأكثرهم تقى .

— ٣ —

أبواق موسيقية تنبعث منها أنغام شجية ، وقهقهات عالية مخمورة ، وضحكات نسوية ناعمة مثيرة ، وشابات رائعات الحسن يبرزن فتننهن ، فالشعر الأصفر الأخاذ ، والشعر الكستنائى الجذاب ، والشعر الأسود السبط الطويل يتهدل على الأكتاف العارية العاجية ، يبرز محاسن الوجوه الحلوة التى زانتها عيون اذا نظرت سلبت ، واذا أسبلت سحرت ، عيون تبعث سهامها الى القلوب ، ثم تتكسر فى وهن يزيد النار التى تضطرم بين القلوب ضراما ، وأناس يغدون ويروحون يتقدمون خطوة ثم يتلفتون لفتة أو يقفون لحظة ، فهم فى بابل مدينة الترف واللهو والجمال .

وانطلق فى طرقات المدينة الصاخبة شابان جميلان تنطق قسمات وجهيهما بالرجولة والفتوة ، وتشع عيونهما اشعاعات البراءة والطهر ، سارا مرفوعى الرأس ، وأخذت الأنغام الموسيقية تداعب آذانهما ، والأجساد النسوية اللينة المتثنية تمر أمام عيونهما ، فلا يحفلان بالموسيقى المشجية ، ولا بالأجسام الممشوقة المغرية . كان جمالهما يأسر الأفئدة ويأخذ بالألباب ، فلو أنهما انطلقا فى مدينة أخرى لكانا فتنة ، ولكنهما كانا فى بابل ، مدينة الفتنة والجمال والخمر والنساء .

انطلقا يعلوهما مهابة ووقار ، وظلا فى انطلاقهما يضربان فى الطرقات على غير هدى . فأخذ نشاطهما يفتر ، وتفصد العرق ، وبدا عليهما اعياء ، فالتفت أحدهما الى الآخر وقال :

ـــ انى أشعر بضيق فى صدرى وارتخاء فى جسمى ودوار فى رأسى .

فقال الآخر :

ـــ أحس وهنا فى ساقى ، وأشعر كأنى سأنهار .

وكانا قد بلغا مكانا يكسوه العشب الأخضر الندى ، وقامت فيه أشجار كانت تنشر ظلها ، هنا وهناك ، فارتميا فى ظل شجرة ، وتمددا فى تراخ ، وجعلا يملآن صدريهما بالهواء فأحسا بعض الراحة ، ولكن استمر الوهن يسرى فيهما ، فقال أحدهما وقد وضع يده على بطنه :

ـــ أحس ألما ها هنا .

ـــ انه الجوع .

ـــ أتكابد ما أكابد ؟

فهز الآخر رأسه وقد شخص بصره الى السماء ، وعبق المكان برائحة شواء ، وملأت خياشيمهما ، فهبا من رقدتهما ، وأجالا الطرف حولهما ، فلمحا أناسا قد جلسوا يشوون صيدا على قيد خطوات ، فهما بأن يهرعا اليهم ، ولكن زجرهما زاجر من نفسيهما ، انه الكبرياء ، فلبثا قليلا فى مكانهما ، وراح الجوع يعضهما ، ورائحة الشواء تداعبهما فتضنيهما ، فدحرت الكبرياء ، فتقدما على استحياء حتى وقفا بالقرب من القوم ينظران ، وأحس الناس وقوفهما ، فدعوهما الى الطعام .

جلسا يأكلان حتى اذا امتلآ تطلعا الى القوم ، فرأيا رجالا ونساء ، وكان بين النساء امرأة باهرة الجمال ، حسنها قاهر ، كانت عيناها فى زرقة السماء ، وكانتا ساخنتين سخونة الشمس ، فما ينبعث شعاعهما الى انسان حتى يسرى فى بدنه دفء ، وكانت بشرتها ناصعة البياض ، أنصع من سحابة . وكان شعرها كجدول من الذهب الرقراق ، أما الصدر فقد كان الفتنة والاغراء ، فراحا يختلسان النظر اليها ، فيخفق القلب ، ويتوه الفكر ، ثم يثوبان الى نفسيهما ، فيغضان الطرف فى ندم وحياء ، فيهب وسواسهما يوسوس لهما أن يمتعا العين بالجمال الفتان ، فيرفعان بصرهما اليها وقد تألقت العيون ببريق الرغبة ، ثم زجرهما زاجر من جوفهما ، فيشعران بشيء من الندم والخجل ، ولكن سرعان ما يذوب الخجل ، ويتبخر الندم ، فيتطلعان ثانية فى وله واشتهاء .

والتقت العيون أكثر من مرة ، فخفقت القلوب فى الصدور ، وثارت الدماء فى العروق ، واعترى الشابين تبدل

وارتباك ، وخشيا أن يفطن الناس الى ما اعتراهما من تغير ، أو يبلغ مسامع القلوب خفقان القلوب ، فاستأذنا شاكرين ، ونهضا وقد اسبلا عيونهما ، حتى لا تقع على الفتنة الجالسة أمامهما ، وما ان ابتعدا خطوات حتى أحسا قوة عاتية خفية ترغمهما على التلفت ، فالتفتا الى المرأة التى أشرق وجهها بابتسامة جذابة تسبى العقول ، فهفت نفساهما اليها ، ولو أطاعا قلبيهما لعادا ليتزودا من الحسن والجمال ، ولكنهما كبتا عواطفهما ، وانطلقا وفى القلب لوعة ، وفى الصدر نار .

سارا صامتين ، وظلا ساهمين ، لا ينطق أحدهما بكلمة ، فقد كان كل منهما يفكر فى ذلك الصراع الذى ينشب فى جوفه فى كل لحظة وفى كل آن ، والتفت أحدهما الى الآخر ، وقال فى جزع :

ـ ركبت فى نفس خبيثة تدفعنى دفعا الى ما تشتهيه ثم تنهانى بعد وقوع المحظور ، وتنهال على باللوم والتقريع ، فما أخبث هذه النفس !

ـ انها نفس من نفوس البشر .

ـ أتحس ما أحس ؟

ـ أحسه وأقاسى منه .

ـ أخشى يا هاروت أن تذلنى هذه النفس .

ـ لا تخش شيئا ، سنكبح جماحها ، وسندحرها وسنخلصها من ذلك الخبث .

فقال هاروت فى حرارة :

ـ سندحرها ما فى ذلك شك .

- ٣ -

وبلغ هاروت وماروت مكانا هادئا بعيدا عن المدينة الصاخبة الماجنة ، كان كل ما فيه ينطق بعظمة الخالق ، فأجالا بصرهما مأخوذين ، فأنزل الفضاء اللانهائي الواسع العريض بقلبيهما الخشوع ، وحلت رقعة السماء الصافية الزرقاء التي زينها قرص الشمس عقدة لسانيهما ، فسبحا لله في حرارة ، وصفر الريح صفيرا خافتا ، فكان في آذانهما كأهازيج السماء ، واستنامت احساساتهما الفوارة ، وشاع فيهما طمأنينة وأمن ، وصفت نفساهما ، ورقت مشاعرهما ، وهامت روحاهما سابحتين في الكون ، فقد كانا في هذه اللحظة أقرب لأهل السماء منهما لأهل الأرض .

وراحت الشمس تنحدر نحو الأفق الغربي ، وأخذ توهجها يخفت ، وخبا بصرها حتى صارت قرصا من عقيق أحمر ، وجعلت تغوص في الأفق البعيد وقد تغير لونها ، وعلتها صفرة الاحتضار ، وتأهب الكون للنوم ، ولكن هاروت وماروت كانا في صلاتهما غارقين ، وظلا في تسبيحهما حتى نشر الظلام جناحيه ، فحجب كل شيء ، وهبت الرياح في قوة ، فجعلت تصفر في شدة ، وتزمجر في حدة ، فصار صوتها أشبه بصوت العويل ، فأحسا شعورا غريبا ، أحسا وحشة تسري في صدريهما ، ورهبة تستولي على مشاعرهما ، فلم يحتملا البقاء في ذلك المكان الهاجع ، فقد كان سكونه يخلع القلوب ، فنهضا

لينصرفا الى المدينة الصاخبة ، لعل الطمأنينة تنزل بالقلب الواجف ، وما أن ابتعدا عن المكان قليلا حتى سكن روعهما ، وهدأت نفساهما ، فعجبا من تلك المشاعر المتضاربة السريعة التقلب فى صدر الانسان !

وراحا يضربان فى الظلام ، واستمرا فى سيرهما حتى عاودهما احساس سبق أن شعرا به ، فقال هاروت :

ـ أحس جوعا .

فقال ماروت فى أسى :

ـ يا ويلتنا ، صرنا عبيد هذا البطن .

ـ وما العمل ؟

ـ ننطلق الى المدينة نبحث عن طعام .

ـ انعيش عيالا على الناس ؟

ـ وما نعمل ؟

ـ نمارس عملا مما يمارسونه .

ـ أى عمل ؟

ـ والله لاأدرى ؟

وأطرق هاروت يفكر ، فبان فى وجهه الاهتمام ، فقال له ماروت :

ـ فلندع مقاليدنا لله .

ودخلا المدينة وحاما خلالها ، وقد نال منهما الجهد والجوع ، فأتيا أناسا يترنحون من السكر ، فرمقاهم شزرا ، ولاح فى نظراتهما الاحتقار الشديد ، ولمحا جموعا تنطلق الى دار فاخرة فذهبا معهم ، واجتازا بعض ممار طويلة هائلة ، كل ما فيها ينطق بالغنى ، فوجدا نفسيهما فى قاعة فسيحة هائلة ، قد مدت فيها موائد عامرة

بالأطعمة الشهية ، والفواكه المنوعة ، فأجالا بصرهما فى المكان ؛ فرأيا سيدا يرتدى ثيابا مزركشة فاخرة ، يلوح عليه الهيبة والسلطان ، قد جلس عند رأس مائدة كبيرة ، واصطف حول الموائد رجال يلوح عليهم الثراء ، فظهر على هاروت وماروت الارتباك ، فأطرقا حياء وهما بالانسحاب ، ولكن السيد لحهما ، وحزر ما يعانيانه ، فأشار اليهما ، ودعاهما الى الجلوس .

جلسا يتناولان طعامهما فى صمت ، وقدمت اليهما الخمور ، فاعتذرا ، فرمقهما فى دهش ، ولكن سرعان ما عاد القوم الى أحاديثهم ، فأسدل ستار على ذينك اللذين ترفعا عن احتساء ما قدم اليهما من شراب .

وفطن هاروت ومارت الى أن السيد الجالس عند رأس المائدة الكبيرة ، هو حاكم المدينة ، وصاحب الصولة والسلطان ، وأن الآخرين خواصه وندماؤه ومستشاروه . وتحدث الحاكم فأعاره الجميع سمعهم ، وتعلقت عيونهم به ، فراح يبسط نزاعا نشب بينه وبين أحد الموجودين ، وما ان انتهى من قوله ، حتى تأهب الجميع ليحكموا لصالح السلطان ، وما كان الحق فى جانبه ، ولكنهم اعتادوا أن يحكموا لصالح الأقوى ، ولكن الحاكم رنا الى هاروت وماروت وقال .

ـ أحب أن يحكم ضيفانا فى هذه القضية ، فشخصت اليهما الأبصار . كان القوم على يقين من أنهما سيحكمان لصالح رب الدار ، فهما فى بيته ، وعلى مائدته يطعمان ، ولكن هاروت وماروت وان ركبت فيهما غرائز البشر ، الا أنهما لم يتلفتا بعد النفاق والرياء ، فحكما بالحق ، وأدانا الحاكم المهيب رب الدار ،

فسرت همهمة وغمغمة ، وبان فى الوجوه العجب ، ثم انبعثت صيحات انكار ، وتطلع القوم الى الحاكم ، وترقبوا فى لهفة ما ينطق به ، وقال الحاكم فى هدوء :

ـــ قد وليتكما القضاء .

ـــ ٤ ـــ

خصص لهاروت وماروت جناح فى القصر العظيم ، فدلفا اليه مغتبطين ، فقد صار لهما عمل يعملانه ، ولن يكونا بعد الليلة عيالا على الناس ، وطفقا يصليان لله ، ولكنهما لم يحسا صفاء النفس الذى كانا يشعران به لما صليا أول مرة . كان فكرهما يشرد ، فقد كانا يعرضان فى صلاتهما ما مر عليهما من أحداث ، وكان الزهو والغرور والخيلاء تزحف لتحتل الصدر النقى لتعكر صفاءه ، وتلوث نقاءه .

ودب التعب فيهما فاضطجعا ، واحس ماروت بعينيه تسبلان برغمه ، ويسرى فى بدنه خدر ، ففتح عينيه فى فزع ، واستمسك قليلا ، ولكن سرعان ما انطبق جفناه ثانية ، فهب مرعوبا وقال فى رهبة :

ـــ أكتب علينا الموت يا هاروت ؟

ـــ لماذا ؟

ـــ احس قوة ترغمنى على اطباق عينى ، واحس عدم قدرة على السيطرة على حواسى ..

ـــ اشعر بما تشعر به .

ـــ ما ابشع الموت . أنفنى ؟

ـــ لا أظن .

وتثاءب ماروت وهوم فى جلسته ، ثم رقد وهو يتكلم فى نعاس ، أخذ صوته يخفت ، حتى صمت راح فى النوم ، فرمقه هاروت فى عجب ، فألفاه يتنفس فى هدوء وقد أسبل عينيه ، فاطمأن بعض الشيء وغمغم :

ـــ لعله شعور جديد لا ندريه .

وأسلم جفنيه للرقاد ، فراح فى سبات .

وتنفس الصبح ، فنظر هاروت الى رفيقه ، فألفى وجهه قد أشرق ودبت فيه الحياة ، فغمغم :

ـــ ما الذ الرقاد بعد التعب والجهد !

فقال ماروت وهو يملأ صدره بالهواء :

ـــ أحس كأنى خلقت من جديد .

وجلسا للناس يفصلان فى قضاياهم ، فرضى الناس ، وترادفت الأيام وكرت ، وتقضت هادئة لينة لا ينغصها شيء . فقد كانا اذا ما انتهيا من عملهما يعتكفان فى جناحهما ، يسبحان بحمد الله ويقدسان له ، ودعاهما الحاكم الى ولائمه مرات ، فكانا يشاركانه فى الطعام ، أما اللهو والشراب فقد كانا يعرضان عنهما ، برغم أنهما يهفوان اليهما .

وفى يوم أقبلت الزهرة تعرض عليهما قضيتها ، فما أن اهلت بطلعتها حتى خفق القلب ، وما أن التقت عيونهما بعينيها الزرقاوين ، حتى تدفق الدم حارا الى رأسيهما . انهما ليذكران ذلك الحسن الرائع ، وهاتين العينين الساخنتين الصافيتين . وأسبلا عيونهما ، ونظرا من خلال

أهـــدابهما الى الشـــعر الذهبى ، والجيـــد العاجى ، والفتنة المشرقة ، فأحسا رعدة تسرى فى بدنيهما ، وعجب كل منهما فى نفسه لذلك التبدل الطارىء ، فقد أرهفت حواسه وشعر بروحه تهفو اليها .

انهما قابلاها مرة واحدة قبل اليوم ، كان ذلك يوم هبطـــا الى الأرض ، وهذه هى المرة الثانية ، فما بالهما يتلهفان اليها ، وما بال القلب يخفق كل ذلك الخفقان ؟ !

وحسب كل منهما أنه وحده يعانى ما يعانى ، ويحس ما يحس ، فرنا كل منهما الى صاحبه ، ليستشف ما يخفى فى صدره ، فما التقت العيون حتى أيقن كل منهما أن صاحبه يكابد ما يكابد ، وانه مسرح لاحساسات جبارة عاتية .

وأخذت الزهـــرة تقص قصتها فى نبرات حلوة ، كانت تدغدغ آذانهـــما ، فتمنيـــا أن تســـترسل فى الـــكلام ، وجعل كل منهما يحـــاول أن يغض بصره ، ولكن قوة طاغية ترغمـــه على النظر .

وأتمت الزهرة قصـــتها وهاروت وماروت يعـــانيان ضغط الاحساسات التى ضاق بها الصدر ، وابتسمت ابتسامة زادت لهيب القلب ، وقالت فى دلال :

ـــ هذه قضـــيتى عرضتهـــا عليكما ، وفى انتظار حكمكما العادل .

فرفع ماروت رأسه وقال فى صوت متهدج :

ـــ هذه قضية تحتاج الى درس ، فالى الغد ..

فقال هاروت فى انشراح :

ـــ هذا هو القول .

وقامت الزهرة ورمقتهما بنظرة هزت كيانهما ، وانسلت كما ينسل الطيف ، وبقى هاروت وماروت فى صمتهما ، وأخـذت الاحساسات تتبخر ، حتى اذا انمحت وصفت النفس ، رفـع هاروت راسه وقال فى عتاب :

ـ لماذا أجلت هذه القضية الى الغد ؟

ـ والله لا درى . نطق لسانى دون ن يوجهه فكرى .

ـ أخشى يا ماروت أن تقهرنا هذه النفس .

ـ دع هذه الوساوس ، هذه تجربة بسيطة واختبار يسير ، سنجتازه فى يسر .

فسمع هاروت صوتا ينبعث من جوفه كأنما يأتى من مكان سحيق يهمس فى ذنه : يا ليت !

— ٥ —

وتنفس الصبح وجلسا للناس وقد ارتسم فى وجهيهما قلق ووجوم ، ولبثا صامتين ، ثم قال ماروت :

ـ ما بك ؟

ـ انى مهموم .

ـ لماذا ؟

ـ رأيت رؤيا أفزعتنى .

فقال ماروت فى صوت خفيض :

ـ رأيت الزهرة ولا ريب .

ـ وكيف عرفت ؟

ـ رأيت ما رأيت .

ـ يا وليتنا ، هلكنا .

ــ هلكنا . هذه الرؤيا نذير السماء .

ــ لا تقنط ، ولنعمل جاهدين على ألا يحدث فى اليقظة ما قد جرى فى المنام .

ــ حاشا لله ما كنا فاسقين .

ــ وما ينبغى أن نكون ..

ــ وعلام عولت ؟

ــ اذا أقبلت هذه المرأة فصلنا فى قضيتها ، وتركناها تنصرف .

ــ فى الحال .

ودخلت الزهرة عليهما فى خفة الغزال وقد بدت زينتها ، فطغى جمالها الساحر ، فما ان وقع بصرهما عليها حتى اضطربا ، ولكنهما تجلدا ، وتحدثت وهما فى تكلفهما ، واصطناع الوقار ، ولكن ما دار الحديث بينهم حتى نسوا أنفسهم ، فاقترب هاروت منها ، فشعر بنشوة ، وأخذ يدها بين يديه ، فغمره احساس لذيذ اطمأن اليه ، ودنا ماروت منها ، ومس كتفها ، فخفق بدنه خفقات ، وسرى فيه خدر انشرح له صدره . ورفعت الكلفة ، وضحكت الزهرة ضحكات نمت عن قلب خلى طروب ، ودكت حصونهما . ولمحت المرأة ذلك البريق الذى ولد فى عيونهما ، فنفرت فى خفة ، وابتعدت فى دلال ، فقال هاروت :

ــ الى أين ؟

ــ الى المعبد ، هيا .

ــ وماذا نفعل هناك ؟

ــ نصلى للشمس .

ـــ لا . لن يكون ذلك .

ـــ اذن الى الغد .

ـــ الى الغد .

وخرجت الزهرة وتركتهما لنفسيهما ، فهب ذلك الصوت الذى لا يرتفع مزمجرا الا بعد حلول البلاء ليعتب ويؤنب ، ويزجر ويخز النفس وخزات ، فقال هاروت فى التياع :

ـــ قطعنا فى المعصية شوطا ، فحل علينا العذاب .

ـــ هون عليك ، فما هذه النزوات الا السكين التى تخضد شوكة الزهر ، ان هى الا حطب الايمان ، تزيد حرارته وتؤجج ناره ، اننا نزداد خشوعا فى صلاتنا كلما هفونا هفوة ، لنكفر عن خطايانا .

ـــ بالله دع عنك هذا ، اننا ننزلق فى طريق الدنس .

ـــ لا تجزع ، واذكر رحمة ربك ، فقد وسعت رحمة ربك كل شىء .

وتصرم النهار وهما فريسة للوساوس والأفكار ، وانقضى شطر الليل وهما فى قلقهما واضطرابهما ، وأخيرا مس النوم جفونهما ، فأراحهما من وخز الضمير وشهوات النفس وعذاب الفكر ، وتسللت اشعة الشمس الى الحجرة ، فهبا من نومهما وقد أشرقت نفوسهما ، فقد انجلت المشاعر عن صدريهما ، فعزما على أن يزجرا الزهرة اذا ما أقبلت وحاولت اغراءهما .

ودخلت عليهما ، فنسيا كل شىء الا ذلك الحسن ، وتضعضعت ارادتهما ، وانهارت مقاومتهما . وحلت عقدة اللسان ، فانساب الحديث عذبا شهيا ، وما ان انتهى حتى كان ثلاثتهم فى دار الزهرة .

وجاءت الزهرة بخمر ، وقدمتها الى الرجلين ، فرفضا

ان يمساها ، فأظهرت الاستياء ، فساءهما غضبها ، ولعبت الخمر برأسيهما ، فقاما الى الزهرة وقد التمعت عيونهما ببريق الرغبة والاشتهاء .

وسمع وقع أقدام فرفع هاروت وماروت رأسيهما فزع ، وبان فى عيونهما الغضب ، وظهر عليهما الارتباك ، فقد رأى الرجل ما يقترفان . لن يكتم الرجل ما رأى ، وستصبح فضيحتهما على كل لسان ، فلن يستطيعا بعد اليوم أن يمشيا بين الناس مرفوعى الرأس ، وفى مثل لمح البصر خطرت لهاروت فكرة ، انه يستطيع أن يقتل الفضيحة فى صدر ذلك المتطفل الدخيل ، فوثب عليه ، وقبض على رقبته ، وأخذ يحاول أن يكتم أنفاسه ، وهرع ماروت يعاون رفيقه ، وما تركاه حتى كان جسدا بلا حياة .

وطارت الخمر من رأسيهما ، فأفاقا الى نفسيهما ، فشعرا برعب شديد ، ونزل بهما هم ثقيل ، فقد تلطخا فى لحظة بكل الأوزار ، واقترفا ما يقترفه أحقر انسان . وأحسا خزيا ، فطأطأ رأسيهما ، وعزما على أن ينطلقا الى السماء ، ليكفرا عن خطاياهما ، ولكنهما احسا بأرجلهما قد شدت الى الأرض ، فندت منهما صرخات فزع ورعب ، فقد ضاعا بين الأرض والسماء .

رابعـــة العـدوية

— ١ —

انين خافت ينبعث فى جوف الليل البهيم ، وظلام تكاثفت طبقاته وهدوء شامل لا يعكره الا ترديد الأنين ، كانت امرأة فقيرة وحيدة تقاسى آلام الوضع ، وما كان يؤنسـها الا زوجها المهموم ، الذى قبع فى مكانه وقد غشيه قلق ووجوم ، وهتفت المرأة فى صوت خفيض :

ـــ اسماعيل ، أوقد القنديل .

فقال الرجل فى نبرات تنم عن الأسف العميق :

ـــ ليس فى الدار زيت .

ـــ سل الجيران .

ـــ لا أسأل أحدا ، لا أسأل الا الله .

وأطرق الرجل ، وزاد الأنين ، ثم وضعت المرأة طفلـة ، ولولا الظلام لبان فى وجه اسماعيل الأسى والحزن العميق ، فله ثلاث بنات يقاسى ما يقاسى فى سبيل القيام بعبئهن ، فقد كان فى شظف من العيش شديد ، وها هى ذى الرابعة جاءته الليلة لتزيد فى أعبائه وتقصم ظهره .

وهدأت المرأة وضمت وليـدتها اليها ، ثم أغفت ، فنـام اسماعيل وهو حـزين ، فرأى فيما يرى النائم رسـول الله

ﷺ قد أقبل عليه يواسيه ويقول له : لا تحزن ، قد وهب الله لك أمة من عباده الصالحين ، فقام اسماعيل من نومه منشرح الصدر ، هادىء النفس ، وانطلق الى الوليد ، ونظر الى وجهها الصغير ، فتحرك حنانه الدفين ، فابتسم وغمغم : ايه يا رابعة .

— ٢ —

خرج اسماعيل الى أسواق البصرة ، ليكدح فى سبيل تحصيل قوت عياله ، وخرجت رابعة الى المسجد الكبير ، لتندس فى الحلقات التى تعقد حول صحابة الرسول وأكابر التابعين . كانت جارية صغيرة ، مرهفة الحس ، صافية الروح ، فكانت تشعر بخشوع ، اذا ما ذكرت قدرة الخالق ، وترتجف اذا ما ذكرت النار والعذاب والحساب .

وغابت الشمس ، وسجا الليل ، فقفل الناس الى دورهم عائدين ، وعاد اسماعيل مكدودا يحمل بين يديه طعاما ، وجلس مبهور النفس ، يلتقط أنفاسا متتابعات ، ولما استراح جىء بالطعام الذى كدح طوال يومه ليجنيه ، ووضع على الأرض ، فتحلقوه وطفقوا يأكلون ، ولكن رابعة شردت بفكرها قليلا ، ثم قالت :

— يا أبت لست أجعلك فى حل من حرام تطعمنيه .

فرفع الرجل رأسه . وحدجها ببصره ، وقال :

— أرأيت ان لم نجد الا حراما ؟

فقالت فى ايمان عميق :

— فنصبر فى الدنيا على الجوع ، خير من أن نصبر فى الآخرة على النار .

ودارت عجلة الزمن ، فطوت اسماعيل ، فحزنت رابعة لفقد أبيها ، وقد حل ذلك الحزن بنفس شفافة ، فجعلها تفكر فى الموت وما بعد الموت . وكانت ذكية الفؤاد تكثر من التأمل العلوى ، فراحت تبحث عن المعـرفة فى كل ما تقع عليـه عيناها .

وما كاد حزنها على أبيها يبلى حتى فجعت فى أمهـا ، فرسخ فى نفسها أن هذه الدنيا ان هى الا دار زوال ، انها ممر الى مقر ، فالشقى من شغل بها عن أخراه ، فجعلت تبذل الجهد فى فطام جوارحها عن الشهوات .

ونزلت بالبصرة ضائقة ، وجاء القحط ، فتفرقت أخواتها بحثا عن الطعام ، وشغل الناس بأقواتهم ، ولكنها لم تشغل بشىء عن الله طرفة عين ، كانت تناجيه بالليل ، وتفكر فيـه بالنهار ، حتى صارت لا تحس توافه الاحساسات التى يحسها الناس ، فقد ذابت نفسها فى الله .

وخرجت تتأمل الكون ، فما سنح لبصرها صورة الا عبرت الى المصور بصائرها ، وانطلقت نشوى ، فقد أصبحت من تنسم روح الوصال سكرى ، وأصبحت من ملاحظة سبحات الجلال حيرى ، وفيما هى فى هيامها ، لمحها رجل من تجار الرقيق ، فانقض عليها وخطفها ، فوقعت فى ذل الأسر ، وراحت تحمل صنوف العذاب فى صبر ، ولم تجأر بالشكوى فقد كانت فيها زراية لا تليق بها .

وخرج الرجل بها الى سـوق الرقيق ، فباعها فى قبيلة بنى عدى بستة دراهم ، فأصبحت رابعة العدوية مولاة آل عتيك ، وكان سيدها جاف الطبع يسومها سوء العذاب لأنفه الأسباب ، فما كانت تفكر فى ذلك الاضطهاد ، فقد كانت مشغولة بحبها : لقد ملىء قلبها عشقا لله حتى فاض .

وفى يوم بعثها سيدها لقضاء حاجة له ، فانطلقت تهرول فى أزقة البصرة ، ولمحها أحد المارة ، فأعجبه شبابها ، فرماها بنظرة منكرة ، فاضطربت وارتجفت ، وحاولت أن تزور عنه ، فزلت قدماها ، وسقطت على الأرض ، فانكسرت ذراعها ، فغشى عليها ، لشدة ما أصابها . وبقيت فى غيبوبتها لحظات ، ولما استردت صوابها رفعت رأسها خاشعة الى السماء تناجى ربها : رباه قد انكسرت ذراعى ، وأنا أعانى الألم واليتم ، وسوف أتحمل كل ذلك وأصبر عليه ، ولكن عذابا أشد من هذا العذاب يؤلم روحى ، ويفكك أوصال الصبر فى نفسى ، منشؤه ريب يدور فى خلدى ، وهل أنت راض عنى يا الهى ، هذا ما أتوق الى معرفته .

وأطرقت قليلا ، فغشيها أمن ، ثم نهضت مطمئنة .

وفى ليلة من الليالى أرق سيدها ، فاذا بصوت يرن فى أرجاء داره ، فخرج من غرفته يتلفت ويتلمس مبعث الصوت ، وتادته أذناه الى غرفة رابعة ، فظهر فى وجهه العجب ،

ان مولاته تعبد ربها خاشعة ، وقد انهمل دمعها غزيرا ، فوقف يرقبها مشدوها ، وخيل اليه أن قنديلا من نور يتألق فوق رأسها ، فشعر برهبة ، وصك أذنيه قولها ، ربى انك تعلم أن أشد ما أتوق اليه هو عبادتك ، وتأدية ما لك من حقوق ، ولكنى أسيرة لا أملك حريتى ، فلا سبيل الى تحقيق هذه الغاية ، فلتعذرنى يا الهى ، فاشتد وجيب قلب الرجل ، وأحس وجلا يلفه ، فراح يفكر فى اطلاق سراح مولاته ، فما كان له أن يحبس صالحة وهبت نفسها لله .

وما انفلق عمود الصبح حتى بعث اليها ، فلما مثلت أمامه قال لها :

ـ أنت حرة طليقة يا رابعة ، ولك الخيار فى أن تمكثى هنا أو تذهبى الى حيث تشائين :

فخرجت رابعة من دار آل عتيك تستنشق عبير الحرية ثانية ، وكان قلبها مفعما بالفرح ، فقد صار وقتها كله فى يدها ، فلن يشغلها عن الحبيب بعد اليوم شاغل .

وانطلقت الى الصحراء حيث الصفاء والهدوء ، وهامت تناجى ربها ، ولكنها عادت واتخذت لها خلوة متواضعة تخلو فيها بالحبيب . ظلت طوال الليل تصلى ، حتى اذا ما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة ، ثم هبت مذعورة وهى تقول : يا نفس كم تنامين ؟ ! والى كم تنامين ؟ ! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها الا لصرخة يوم النشور . وانهمرت دموعها ، وجرت على خدها ، فرفعت رأسها ، ونظرت الى السماء من خلال الدموع وهتفت : يا الهى ، أتحرق بالنار قلبا يحبك ؟ !

واشتهر أمر رابعة فى البصرة ، فتطالت اليهـا الأعناق ، وقصـدها كبار العلمـاء ، فوفد عليهـا حسن البصرى التقى الشهير ،وشقيق البلخى الصوفى العظيم ، وسـفيان الثورى المجتهد الكبير ، والملك دينار حاكم الكرج ، وكانوا لا يجدون غضاضة فى أن يأخذوا عنها أمر دينهم ، فقد أخذ كبار الصحابة عن عائشة ثلثى الدين .

حمل الناس اليها هداياهم ، ولكنها كانت ترد عطايا الناس وهى تقول : ما لي بالدنيا حاجة .

وزارها أحد التجـار يـوما ، فوجـدها تعيش فى دار متواضـعة تحتاج الى اصـلاح وتعمـير ، فعرض عليها أن يعطيها دارا من دوره حتى يتم الاصلاح ، وما زال بهـا حتى وافقت فانتقـلت الى دار الرجـل ، فوجـدت جـدرانا تزدهى بزينات تأخذ بالألباب ، وزخارف تسـبى العقـول ، وساخت قـدماها فى طنافس فاخـرة ، ولمسـت الحـرير الهفهاف ، فراحت تنقل عينيها فيما حـولها وهى حيرى والهة ، انهـا لم تر قبل اليـوم مثل هذا النعـيم ، فتأملته طـويلا حتى شغلت به ، وسرعان ما عادت الى طبعها فأنكرت على نفسها ما هى فيه ، لقد شغلها العرض الزائل عن ذكر الحبيب ، فانقبضت واشاحت بوجهها عن التحف المتناثرة ، وخرجت من الدار ، فرارا من الفتنة التى كادت تستهويها .

ولمحها الرجل وهى خارجة ، فهرع اليها وقال :

ـــ الى أين ؟

ـــ الى دارى .

ـــ انتظرى حتى يتم اصلاحها .

ـــ لن أعود ثانية الى هذه الدار ، ولو مكثت بها لأتلفت نفسى بهذه الأشياء الجميلة ، فيستهوينى لطفها ، فيحول دون ما أنا صائرة اليه ، من الأخذ بأسباب الآخرة .

— ٥ —

وانطلقت رابعة شاردة اللب تفكر فى الله ، وكانت زرية الحال ، فلقيها سفيان الثورى ، فقال لها : يا أم عمرو ، أرى حالا رثة ، فلو أتيت جارك يغير بعض ما أرى !

فقالت له فى هدوء : والله انى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسأل من لا يملكها .

فأطرق سفيان ، ثم استأنف حديثه ، فتجاذبا أطرافه ، وفيما هو يتحدث قال : واحزناه !

فقالت فى حزم : لا تكذب بل قل : واقلة حزنى ! ولو كنت محزونا لم يتهيأ لك أن تتنفس .

فاربد وجهه ، ولكن سرعان ما عاد اليـــه هدوءه ، فقال لها : كيف ايمانك يا رابعة ؟ وكم هـــو مبلغ اعتقـــادك بالله تعـــالى ؟

ـــ لا اعبد ربى خوفا من ناره ، أو شـــوقا الى جنته ، ولكن اعبده لمحض المحبة والاخلاص .

ورفعت رأسها الى السماء ، وأخذت تناجي ربها ، الهى أحبك لوجهين : لحبى وهيامى بك ، ولأنك أهل للمحبة والعبادة ، فباشتياقى ومحبتى أذكر اسمك ، وأشغل بذاتك العلية ، وبأهليتك للمحبة أنال من لدنك مرتبة المشاهدة ، فلا يقف حمدك وثناؤك لأمر منهما ، وانما لك الشكر ، ومنك الفضل للحالين .

★★★

وكان ابو سليمان الهاشمى واليا على البصرة ، وكان يريد الزواج ، فبعث الى علماء البصرة يستشيرهم فى امرأة يتزوجها ، فأجمعوا على رابعة ، فكتب اليها ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فان ملكى من غلة الدنيا فى كل يوم ثمانون ألف درهم ، وليس يمضى الا القليل حتى أتمها مائة الف — ان شاء الله — وأنا أخطبك ، وقد بذلت لك من الصداق مائة الف ، وأنا مصير اليك بعد أمثالها فأجيبينى .

وبلغتها رسالة الوالى ، فلم تجد هوى فى نفسها ، انه يعرض عليها الدنيا وما كانت الدنيا تهمها ، فراحت تكتب اليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فان هذا الزهد فى الدنيا راحة القلب والبدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن ، فاذا أتاك كتابى فهيىء زادك ، وقدم لمعادك ، وكن وصى نفسك ، ولا تجعل وصيتك الى غيرك ، وصم دهرك واجعل الموت فطرك ، فما يسرنى أن الله عز وجل خولنى أضعاف ما خولك فشغلنى به عنه طرفة عين ، والسلام .

— ٦ —

كانت رابعة صائمة ، فخلت الى ربها تدعوه وتناجيه ، وغربت الشمس وهى على هذه الحال منقطعة الى العبادة ، وعادت الى نفسها فغمغمت : الى متى تعذبين نفسك يا رابعة ، وتحملينها مشقة ليس بعدها مشقة ؟

وصك أذنيها طرق على الباب ، فذهبت فاذا برجل فى يده صحن من الطعام ، تركه ثم انصرف ، فتناولت الصحن ووضعته فى زاوية من الغرفة وتشاغلت باصلاح القنديل . فدخلت هرة فأكلت ما فى الصحن ، فلما عادت رابعة وجدت الصحن خاويا فقالت فى نفسها : لا بأس ، أفطر على الماء .

وذهبت لتعود بالماء فانطفأ القنديل ، فلم تطق احتمالا ، فقالت : اللهم لم هذا العذاب ؟

وأحست ندما ، فأطرقت فى استحياء ، وسمعت صوتا آتيا من جوفها كأنما ينبعث من مكان سحيق يقول : لو شئت يا رابعة وهبنا لك ما فى الدنيا ، ومحونا ما فى قلبك من نار العشق ، لأن قلبا مشغولا بحب الله لا يشغل بحب الدنيا .

أسفت رابعة أشد الأسف لما بدر منها ، فوطنت العزم على الا تعود فتتمنى سعادة الدنيا .

واقبل الملك دينار ، فوجدها على حصيرة بالية ، وموضع الوسادة قطعة من الآجر ، وتشرب من اناء مكسور ، فقال لها :

— أعرف يا أم الخير أصحابا لى من ذوى اليسار ، فاسمحى لى أن أذهب اليهم ، أطلب اليهم معونتهم فى أمر رفاهيتك وراحتك .

كان الملك دينار يريد أن يستأذنها فى أن يأتيها ببعض حاجات ، فهو يعلم أنها ترد ما يعطيها الناس ، ولكنها كعادتها لم تأذن له ، وقالت :

— ان الله رازق الأغنياء يهون على الفقراء أيضا حاجتهم ، فما علينا الا الصبر والقناعة .

— ٧ —

وأقبل حسن البصرى ليزور رابعة كعادته ، فرأى على بابها تاجرا يبدو عليه التردد ، فسأله عن حاجته ، فقال الرجل :

— أحضرت كيسا من الذهب لرابعة ، واننى مضطرب لا أدرى أتقبله أم ترفضه ؟ فادخل بالله وأنقذنى من هذا الاضطراب .

فدخل حسن وأخبرها خبر الرجل . فقالت :

— ألا تعلم يا حسن أن الله يرزق عباده ، حتى الذين هم عنه لاهون ، فما بالك بمن يكن فى سويداء قلبه محبة يقف دونها الحصر لفاطر السموات عز وجل !

اننى يا حسن لم أتوجه الى غير الله منذ اليوم الذى أدركت فيه قدرته الالهية . كيف أستطيع قبول هدية هذا التاجر وأنا لا أعلم هل اكتسب ماله من حلال أو من حرام ؟

وماتت زوجة حسن البصرى ، فطلب رابعة للزواج ، فلم تقبل ، فجاء يكرر طلبه ، فقالت له :

ـ أتزوجك ان أجبتني على ما يشغل خاطرى .

ـ قولى .

ـ هل أموت وانا على ايمان كامل ؟

ـ علم ذلك عند ربى .

ـ هل أنال صحيفتى بيدى اليمنى يوم الحساب ؟

فسكت قليلا ، ثم قال :

ـ علم ذلك عند ربى .

ـ مع أى فريق أكون يوم الحشر ، أمع الذاهبين الى الجنة أم مع الهالكين فى جهنم ؟

ـ علم ذلك عند ربى .

وساد بينهما صمت ، ثم قالت :

ـ فاذا كنت مشغولة اللب بأمثال هذه الأمور ، فكيف أبحث عن الزواج ؟ !

فحدجها ببصره وقال :

ـ أليس لك رغبة فى الزواج أبدا ؟

فقال فى هدوء :

ـ انما يتزوج من يملك ارادة نفسه ، أما أنا فليس لى ارادة ، ان أنا الا عبدة المولى عز وجل .

وانصرف حسن البصرى ، وجن الليل ، ونام الكون ، فقامت رابعة البتول على سطح لها ، فنادت :

ـ الا هدأت الأصوات ، وسكنت الحركات ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وقد خلوت بك يأيها المحبوب ، فاجعل خلوتى منك فى هذه الليلة عتقى من النار .

أرض الله

انساب فى طرقات المدينة أشعث أغبر ، وقد طال شعره ، واسترسلت لحيته ، وبرقت عيناه ، وبان فى وجهه الهم الدفين ، وراح يدق صدره بقبضة يده ، ويصيح فى أسى عميق :

ـــ واشقائى ، واعذابى ، حطمت سعدى بجهلى ، وعدت الى الشقاء بعد النعيم .

وراح الناس ينظرون اليه فى رثاء فقد كانوا يعرفونه . وكانوا يحبونه ، كان عاقلا رزينا ، فاذا بهم يصبحون ذات يوم ، فيجدونه ينطلق فى مسالك المدينة شارد اللب ، شاخص البصر ، يهمهم فى جنون .

وأصبحوا فى حيرة ، فهم لا يدرون ما حل به ، وراحوا يتهامسون عما جرى له ، ويقولون ان طول قيامه ، وكثرة عبادته ، وقلة نومه ، أطاشت عقله ، وذهبت بلبه ، وجعلته فى ذهول ، أصبح مجذوبا يهذى ، يبعثر الكلام دون فكر أو تدبير .

وساء واحدا من أصحابه ما أصابه ، فعزم على أن يحدثه ، وعلى أن يلتمس منه أن يلزم داره ، حتى يريح أعصابه ، ويعود الصفاء الى ذهنه المكدود ، فلما لمحه قادما يصرخ فى لوعة ووله ، ذهب اليه ، وقال له فى توسل :

ـــ أرح نفسك .

فقال فى يأس مرير :

ـــ دعنى فى شقائى .

فمد يده وجذبه فى رقة ، وقال له :

ـــ تعال معى ، وهدىء من روعك .

ـــ هيهات أن يهدأ روعى ، أنا الطريد ، أنا المعذب ، يا لشقائى .

ـــ ما هذا الذى تقول ؟

ـــ عدت الى الجحيم ، عدت الى البؤس المقيم ، وولت أيام الهناءة كحلم قصير .

ـــ ما هذا الجزع ؟

ـــ لو رأيت ما رأيت ، وطردت من النعيم كما طردت ، لكان جزعك أشد من جزعى .

ـــ وماذا رأيت ؟

ـــ دنيا السعادة ، عشت فيها أرشف كئوس الهناءة ، حتى ارتكبت الخطيئة الكبرى ، فخرجت منها مذموما مدحورا .

فهز الصديق رأسه فى حزن وقال :

ـــ آه .

فقال الرجل :

ـــ بالله لا تسىء الظن بى ، فانى لم أجن بعد .

ـــ لا أستطيع أن أفهم ما تقول ؟

ـــ وكيف تفهم اذا كنت لم تر ما رأيت ، لو أنك تركت دنياك هذه وانتقلت الى الدنيا السعيدة التى عشت فيها ، لما لمتنى على ما أنا فيه .

ـــ وأين دنياك هذه ؟

ـــ أتعرف ذلك الجامع المهجور الكائن فى طـــرف المدينة الشرقى ؟

ـــ أعرفه .

ـــ اذهب اليه ، واصعد مئذنته ، ستجد بها نافذة ، انظر منها تر عالما عجبا .

ورمق صديقه ، فألفـــاه يرنو اليـــه فى انكار ، لم يكن يصدق ما يقوله ، فانطلق فى طريقه يدق صدره بقبضة يده ويصيح :

ـــ واشقائى ، واعذابى ! حطمت سعدى بجهلى ، وعدت الى الشقاء بعد النعيم .

ووقف صديقه يرقبه حتى اختفى عن عينيه ، فعـــاد الى داره مطـــرقا يلفـــه حـــزن عميق ، وخـــلا بنفســـه وجعـــل يفكر فى صديقه الذى أصابه مس من الجنون ، فانقبض وزاد أساه ، واحتلت ذهنه صورته وقد اتســـعت عينـــاه وهـــو يقول : « أتعرف ذلك الجامع المهجور الكائن فى طرف المدينة الشرقى ؟ اذهب اليه ، واصعد مئذنته ، وستجد بها نافذة ، انظر منها تر عالما عجيبا » .

وخطر له أن يذهب الى ذلك الجامع المهجور ، وســـخر من ذلك الخاطر . ولكنه ظل يلح عليـــه ويضايقه ، ويحتـــل أقطار رأســـه ، فـــلم ير بدآ من أن ينهض وينطـــلق اليـــه ليستريح من ذلك الخاطر المجنون ، سار كأن قـــوة خفيـــة تدفعه حتى اذا بلغ الجامع المنشود أحس شعورا غريبا يستولى عليه ، وسرت فيه تلك المشاعر التى تسرى فيمن يكون مقبلا على عمل خطير .

وعجـــب من تلك الاحســـاسات التى اكتنفته ، فتمـــلك

نفسه ، واتجه الى المئذنة وراح يصعد فى درجها كدوامة تدور ، حتى اذا خرج الى سطحها الملوى الذى يتحلقها ، ولفح وجهه الهواء البارد أحس رأسه يدور ، وتلفت بعيون زائغة ، فرأى شباكا فى الجدار ، فخفق قلبه واضطرب ، فما كان فى جدران المآذن شبابيك .

واتجه اليه ، وأطل منه ، فبان فى وجهه الدهش ، وكادت المفاجأة تذهله عما حوله ، وأحس قواه تخور ، ولكنه أمسك بالنافذة ، وظل ينظر وهو مأخوذ . رأى دنيا واسعة عجيبة يتألق فيها نور هادىء لطيف ، وقد امتدت الدور الأنيقة على نهر رقراق ، يحيط بها حدائق زاهرة بهيجة تسر العيون ، وتأخذ بالألباب ، ورأى فى ناحية من المدينة سوقا نسقت تنسيقا بديعا ، امتلأت حوانيتها بالخيرات ، وأناسا يغدون ويروحون فى طرقاتها ، يلوح عليهم الدعة والاطمئنان ، وتعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، فهفت نفسه الى ذلك العالم الفاتن الجذاب .

ورفع رأسه ، فرأى حبلا قريبا يتدلى فى الهواء ، فخطر له أن يستعين به على الهبوط ليجوس خلال تلك الديار ، فتسلق النافذة ، ومد يده وأمسك بالحبل ثم راح يتدلى فى حذر ، وما هى الا دقائق حتى ألفى نفسه يسعى فى المدينة ويتلفت فى دهش واعجاب .

كان الجميع منهمكين فى أعمالهم ، فراح يتفرس فيهم ، فراعه ذلك الصفاء الرائع المتألق فى عيونهم ، ومسحة الطمأنينة التى تكسو وجوههم ، وذلك البشر المترقرق فى محياهم ، ولاحوا لعينيه كأطياف شفافة نقية ، لا يشدها الى الأرض خبائث النفوس .

وانطلق كالمأخوذ ، وقد أدهشته تلك السكينة النازلة بالقلوب ، وحيره أمر القوم ، فلم يجد لذلك النقاء من تأويل . ورأى اثنين يتناجيان ، فاسترق السمع ، فزادت دهشته ، وزاد عجبه ، كان حديثا لطيفا ، كله ود واخاء ، لا لغو فيه ولا تأثيم . قلوب فطرت على الوداد ، وصدور نقية أنقى من البلور ..

وبلغ السوق فراح يتلفت في ذهول ، كانت البضائع منمقة تنميقا بديعا ، يأخذ بالألباب ، وكانت في أماكن مفتوحة لا نوافذ فيها ولا أبواب ، وشعر بالجوع ، فذهب الى مخبز ، ومد يده في جيبه ، فلم يجد معه نقودا ، فهم أن يدور على عقبيه ، وأن يعود من حيث جاء ، ولكن رجلا أقبل على الخباز وقال له :

ــ أعطني رغيفين على بركة الله .

فناوله الخباز الرغيفين بوجه سمح كريم وقال له :

ــ خذهما على بركة الله .

فاتسعت حدقتا الوافد الغريب ، وبانت في وجهه الحيرة والعجب ، لم يفهم مما جرى أمامه شيئا ، وخطر له أن ينطلق وراء ذلك الرجل الذي أخذ الرغيفين ، ليرى ما يكون ، فسار خلفه حتى اذا بلغ سماكا ، وقف على قرب منه ، وأرهف سمعه ، فسمعه يقول :

ــ أعطني سمكا على بركة الله .

فناوله السماك ما طاب مشرق الوجه ، ففغر الغريب فاه من الدهشة ، وخطر له أن يفعل ما فعله ذلك الرجل ، فعاد الى المخبز ، واجف القلب ، يحس رهبة وقلقا ، وقال

فى نبرات خافتة ، كأنها آتية من أغوار بئر عميقة :

ـــ أعطنى رغيفا على بركة الله .

فناوله الرجل الرغيف ، والابتسامة الحلوة ترف على شفتيه ، فأخذه وسار ، وهو حائر لا يدرى شيئا ، ثم اتجه الى جزار ، وقال له :

ـــ أعطنى رطل لحم على بركة الله .

فأعطاه ما طلب ، فذهب الى فرن قريب وقال :

ـــ اشو لى هذا على بركة الله .

وجلس ينتظر ، وحاول أن يفكر فيما رأى ، ولكن الجوع استبد به ، وعطل تفكيره ، فجعل يرنو الى ما حوله وهو فى شبه غيبوبة ، لا يدرى أنائم هو أم يقظان ! وقدم اليه الفران اللحم المشوى ، فأخذه شاكرا ، وذهب الى حديقة وارفة الظلال ، تطل على نهر المدينة الصافى الذى ينساب فى وقار ، وقعد يلتهم طعامه . حتى اذا سكت صراخ بطنه ، جعل يتلفت حوله فى عجب ، لم يكن فى الحديقة البديعة غيره على الرغم من جمال الجو وروعة المناظر الخلابة ، وأعمل فكره ، ليعرف لذلك سببا ، ولكنه لم يهتد الى شىء .

وتمدد على الخضرة وشخص الى السماء ، وراح يفكر فيما مر عليه ، فتكشف لعينيه بعض ما كان مغلقا عليه ، اهتدى الى أنه هبط الى مدينة سعيدة ، لا تعرف النقود ، ولا المصارف ، ولا الصكوك ، ولا الديون ، ولا الهموم ، فعاش أهلها سعداء ، لا يتعاملون الا ببركة الله .

وظل فى رقدته ، واسترسل فى تفكيره ، فأحس رغبة فى العودة الى المدينة السعيدة لينعم بما فيها من عجائب وأسرار ، فنهض وغادر الحديقة الفتانة ، وراح يضرب فى مسالك المدينة ، وقد نزلت بقلبه سكينة وأمن . وانساب صوت المؤذن عذبا حنونا ، يهز المشاعر ويعبث بالقلوب ، يؤذن بالعصر ، فغادر الناس المتاجر والأعمال ، وأقبلوا على المسجد الكبير خاشعين ، يلوح فى وجوههم الايمان العميق . تركوا البضائع والعروض فى أماكنها المفتوحة ، دون أن يغلقوا دونها الأبواب ، فما كانت تجارتهم ؟ انها أموال الله ، تركوها فى حراسة الله .

وأقفرت الطرقات من الناس ، ولم يبق بها غيره ، فسار الى المسجد الكبير ، وراح يصلى العصر فى اطمئنان غريب ، كان كل ما حوله يخشع القلوب ، ويئد وساوس الصدور ، ولأول مرة فى حياته يحس أن روحه صفت ، وأنها حلقت وهامت ، حتى اتصلت بملكوت السماء ، وامتلأت بالنور .

وقضيت الصلاة ، فارتفعت الأصوات تسبح بحمد الله الرازق الوهاب ، ثم نهض الناس ، وراحوا يغادرون المسجد الى دورهم ، أو الى الحدائق الممتدة على شاطىء النهر الصافى ، الذى استمد صفاءه من صفاء النفوس ، كانت صلاة العصر ايذانا بانتهاء ساعات العمل ، وابتداء ساعات الدعة والهدوء .

وخرج من المسجد ، فألفى فتيات رائعات الحسن فى ثياب بيض ، تحلين بأساور من الفل ، وقلائد من الورود .

كانت فتنتهن تبهر الأبصار ، وتجعل القلوب تخفق فى الصدور ، فنظر اليهن فى ذهول ، فألفى كلا منهن تحمل ابريقا من بلور ، به ماء زلال سائغ للشاربين ، فأحس رغبة فى الشرب ، فاتجه الى فتاة كأنها من الحور العين ، يشع من عينيها بريق فاتن ، اخترق صدره ، ونزل بسويداء قلبه ، فرنا اليها فى اعجاب ، فغضت من بصرها فى حياء ، فمد يده وتناول الابريق ، فاحمرت وجنتاها ، وهزها السرور ، وشرب منه وأعاده اليها شاكرا ، ودار على عقبيه لينصرف ، فاقترب منه رجل ، وهمس فى رقة :

ـــ لعلك غريب ؟

ـــ نعم .

ـــ انها أصبحت زوجك ؟

فاتسعت حدقتاه ، وقال فى دهش :

ـــ زوجى ؟ !

ـــ اجل زوجك ، انهن فتيات حان أوان زواجهن ، يحملن ابريق السعادة على باب الله ، فى انتظار الزوج السعيد ، فمن يشرب من يد احداهن كان ذلك اختيارا لها وقبولا منه ، لتصبح زوجته .

فقال فى صوت خافت :

ـــ وما مهرها ؟

ـــ حسن معاشرتها ، خذها على بركة الله .

فلفته سعادة عارمة ، وسرت فى صدره نشوة ، ومد يده ووضعها فى يدها ، وسار وهو مسرور ، لا يدرى أعلى الأرض يمشى أم فى السماء يطير . انطلقا الى شاطىء النهر .

وراحا ينعمان بمشاهدة الغروب ، وفى صدريهما نشوة ، وفى قلبيهما حب .

وجاء الليل ، وأرخى ستائره السود ، فتحرك حبه ، وطغى وجده ، فلف ذراعه حولها ، وضمها اليه ، وراح يلثمها فى جنون . وتصرم الوقت وهو لا يدرى ما يفعل . ولا الى أين يتوجه ، فالتفت اليها وقال :

ـــ الى أين نذهب لنبيت ليلتنا ؟

ـــ تعال .

وسارت وسار الى جوارها ، حتى بلغا دورا تحيط بها حدائق زهراء ، ينبعث منها ضوء شاعرى خافت ، يحرك المشاعر فى الصدور . ووقفا أمام دار جميلة ، والتفتت اليه ، وقالت وقد أشرق وجهها بابتسامة عذبة :

ـــ هذه دارنا .

ـــ دارنا ؟

ـــ أجل ، كل هذه الدور أعدت للمتزوجين .

وتقدما حتى اذا ما اقتربا من باب الدار ، سمعا صوتا عذبا يهمس :

ـــ ادخلا على بركة الله .

فالتفتا ، فألفيا رجلا يبتسم لهما ابتسامة حلوة ، كادت تنير لهما الطريق .

ودخلا الدار ، فاذا فيها ما يحتاج اليه الزوجان من متاع . فقعدا يتناجيان ويتعانقان ، فغمرته السعادة ، وأحس احساس النائم الغارق فى حلم لذيذ .

وانقضت الليلة كأحلى ما تكون ليلة ، وأشرقت الشمس ،

وطلع النهار ، وهو راقد فى سريره نشوان ، فدنت منه ، فجذبها اليه فى حنان ، فدفعته فى رقة ، وقالت :

ـ هيا ، انهض .

ـ لماذا ؟

ـ لتذهب الى عملك .

ـ لن أخرج اليوم .

ـ بل لابد أن تخرج .

ـ لم ؟

ـ على من يعيش فى أرض الله أن يعمل .

ـ لن يضير المدينة السعيدة شيئا لو لم أعمل اليوم .

ـ لو أن كل انسان قال ما تقول لتقوضت مدينتنا ، ولا ندك صرح هنائنا .

ـ يوم واحد الى جوارك ، ثم أذهب الى العمل .

ـ لا . على من يعيش فى أرض الله أن يعمل من الصباح حتى العصر ، فى تقديم خيرات الله ، الى عباد الله ، ثم يتمتع بعد ذلك بما يشاء .

ـ ماذا أعمل ؟

ـ أى شىء يعود على الجماعة بالخير ، ازرع الأرض ... أحصد الحب .. انسج الثياب .. اصنع ما تشاء لتمكن الناس من أن يأكلوا من رزق ربهم ، وأن يعيشوا فى سعادة وأمان .

وترك فراشه وخرج ، وفيما هو فى طريقه ، راح يفكر فيما يفعله ، تذكر أنه كان تاجرا ماهرا يبيع الناس أشياء بأبخس الأثمان ، ليجنى الأرباح ، ويكدس الأموال ، ولكن

هنا لا بيع ولا شراء ، ولا أموال ، ولا أطماع . الكل يعتمدون على الله ، ويعيشون على بركة الله . وتذكر أنه كلما مر على صانع الزجاج أشتهى أن ينفخ الزجاج مثله ، وأن يصنع الأوانى والقوارير والأكواب ، فعزم على أن يعمل زجاجا . واستمر فى سيره ، ووقعت عيناه على قطعة كبيرة من الذهب ملقاة فى الطريق ، فخفق قلبه ، واتجه اليها وفى قلبه غبطة ، وتناولها هيمان ، ولكن لم يطل سعده ، فقد تذكر أن لا قيمة للذهب فى أرض الله ، فألقى بها بعيدا دون اكتراث ، كما يلقى المارة بحجر يصادفونه فى عرض الطريق .

ومرت الأيام ، فصفت نفسه ، وشفت روحه ، وانشرح صدره ، ولكن لم يبلغ ما بلغه أهل المدينة السعيدة من ايمان عميق . واعتاد أن يبعث الى زوجه زاد يومها عقب خروجه الى عمله ، وما كان يبعث لها الا ما يكفيهما ، وفى يوم من الأيام بينما كان عائدا الى داره ، رأى سمكا طيبا فاشتهته نفسه ، فطلب من السماك أن يعطيه بعضا منه على بركة الله ، فأعطاه ما طلب .

ودخل على زوجه ، ودفع السمك اليها ، فقالت له فى انكار :

ـ ما هذا ؟

ـ سمك طيب .

ـ ولماذا أحضرته ؟

ـ اشتهته نفسى .

ـــ ولكن عندنا قوت يومنا ، فما نفعل به ؟

ـــ نبقيه الى الغد .

فاربد وجهها ، وبان فيه الفزع ، وصاحت فى لوعة :

ـــ الغد ؟ ! يا لحظى العاثر ، انتهت أيام هنائى .

ـــ ماذا تقولين ؟

ـــ لقد جئت أمر ادا .

ـــ ماذا فعلت ؟

ـــ فكرت فى الغد ، واختزنت طيبات الله ، ولا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده .

ـــ أكفر عن ذنبى .

ـــ هيهات .. ان معصيتك زلزلت جنبات مدينتنا السعيدة ، اغضبت الخالق الذى نعتمد عليه ، لقد جرح تفكيرك فى الغد ايماننا العميق بالله ، واتكالنا عليه .

ودنا منها مضطربا ، وقال فى صوت كفحيح الأفعى :

ـــ وماذا أفعل ؟

ـــ لا تستطيع أن تفعل شيئا ، انتهى كل شىء ، وقعت فى الخطيئة الكبرى ، وحق عليك العذاب المهين .

ـــ أى عذاب ؟

ـــ العذاب الذى كنت فيه ، ستخرج من أرض الله مذموما مدحورا .

فغطى وجهه براحتيه ، وراح يصيح فى جزع شديد :

ـــ ويل لى .. ويل لى !

وأحس رأسه يدور ، وشعر بالأرض تميد تحت قدميه ،

وبدوامة من الريح تصفر فى أذنيه ، وظل فى شبه غيبوبة ، حتى اذا أفاق الى نفســه رفع راحتيه عن وجهــه ، فوجد نفسه فوق مئذنة الجامع المهجور ، وفى صدره حيرة وقلق ، وتذكر ما جــرى له كما يتــذكر حلما افاق منه ، فهــرع الى نافذة المئذنة ، التى تطــل على المدينة العجيبة ، ولكنــه لم يجد نافذة ، كانت المئذنة صــماء كجميــع المآذن ، فراح يلف حولهــا يبحث وينقب فى جنون ، ثم نزل فى الــدرج يصرخ ويصيح ، حتى اذا بلغ أول الطريق ، اندفع الى المدينة ، يبكى وينتحب ، ويدق صدره فى جزع شديد ، حزنا على الفردوس المفقود .

وادى الأرزاق

أطرق يفكر مهموما ، فعلا وجهه عبوس ، وسرى في صدره تبرم وضيق ، انه استورد بضاعة كان يطمع في أن يجنى من ورائها أرباحا وفيرة ، فلما باعها لم يكن ربحه يتفق وما كان يحلم به ، وزاد في ضيقه أن هذه ليست أول مرة تتقوض فيها آماله ، ويخيب تقديره ، اخفق مرات في أن يحقق الأرباح التي كانت تتراءى له في خياله قبل أن يقدم على صفقاته .

ولج في التفكير ، فرأى رفقاءه الذين ربحوا أموالا كثيرة وما كانوا أكثر منه خبرة ، أو ألم منه بأسرار السوق ، فربا حزنه ، وزاد ألمه ، وأحس طعم الصاب في فيه ، ودخلت عليه أمه وكانت عجوزا نالت منها السنون ، وجلست اليه ، فأنكرت منه عبوسه ، وحزرت سبب حزنه ، فقد كانت تعلم سبب تبرمه وضيقه ، فأحست يدا قوية تهصر قلبها ، وقالت له تواسيه ، في صوت خافت حنون :

— روح عن نفسك يا بنى ، لا طائل من استسلامك لأفكارك ، فلن تجنى الا الهموم .

فرفع وجهه العبوس وغمغم :

— ما أمر الفشل !

فقالت أمه في ايمان :

ـــ بعد الضيق الفرج ، واننا ولله الحمد فى سعة .

فقال فى حنق :

ـــ لست أدرى لماذا أفشل أنا وينجح من دونى ؟ لا .

ـــ أرزاق .

فقال فى ثورة :

ـــ أية أرزاق ؟

ـــ أرزاق تهبط من السماء يا بنى .

وهم بأن ينفجر فى ثورته ، ولكنه كبح جماح نفسه ، ونظر الى العجوز المؤمنة من بين أهدابه ، ورفت على شفتيه ابتسامة سخرية ، فما كان من المؤمنين بالأرزاق التى تنزل من السماء . ولاذ بالصمت العميق .

* * *

وفكر ، وأمعن فى التفكير ، حتى اذا ما خيل اليه أنه اهتدى الى الخطأ الذى يضيع بسببه ما يرجوه من أرباح ، اتخذ كل ما فى مقدوره لعلاج ذلك الخطأ ، ثم أقدم على صفقة جديدة ، وقد تجددت ثقته فى أنه فى هذه المرة سيحقق ما يرتجيه من أرباح .

ومرت الأيام والأمل يداعبه ، والأرباح الوفيرة تتراءى له ، حتى اذا تمت الصفقة ، عاد اليه عبوسه ، فقد انتهت على غير ما يشتهى ، ولم يحقق ما كان يرجوه من مكاسب ، وانزوى فى غرفته مطأطىء الرأس مهموما ، وأقبلت عليه أمه العجوز تخفف عنه وتواسيه ، وراحت تقول :

ـــ لا يجنى الانسان الا ما كتب له .

فقال فى مرارة :

ـــ أكتب على أن أجد الأشقى ؟

ـــ أى شقاء ؟ أننا فى سعادة ، ادع الله أن يديمها علينا .

ـــ لعلك تحسبين هذه الخيبة المتلاحقة سعادة !

ـــ اننا بخير يا بنى ، أرح نفسك التى تضنيها بالباطل .

ـــ ومن أين الراحة اذا كان الاخفاق حليفنا !

ـــ من أنفسنا . لو أنك رضت نفسك على الرضا لعشت هانئا سعيدا .

ـــ كيف أرضى وأنا أرى من هم دونى ينالون ما يبغون ، وأنا أشقى باجتهادى ؟

ـــ قسمة .

ـــ أصبح رفقائى يملكون الدور والقصور ، والشركات والمنشآت ، وأنا لم أحقق حلما واحدا من أحلامى .

ـــ أرزاق .

فقال فى ثورة ساخرة :

ـــ لعلك تقصدين أرزاقا تهبط من السماء !

فقالت فى ايمان :

ـــ اجل يا بنى ، أرزاق تهبط من السماء ، لو رضيت بما قسم لك كنت أغنى الناس .

ـــ بل أشقى الناس ، هذه القناعة التى تبذرونها فى نفوسنا هى بلوانا ، انها تورثنا الخنوع والاستسلام .

ـــ انها البلسم الشافى ، الدرع الواقية التى تقابل بها القدر الجبار .

ـــ درع صنعت من أوهام ، لو أعرت نصيحتك أذنا

مصفية لنمت فى فــراشى ، ورحت أرقب رزقى المنهمـــر من السماء .

ـــ لا يا بنى ، ما قلت لك اقعد عن طلب الرزق .

ـــ فماذا تقولين اذن ؟

ـــ اعمل ، ورض نفســـك على أن تجـــد السعادة فى عملك ، وعلى الرضا بما تجرى به الأقدار ، فلست بقادر على تغيير ما كان .

فقال فى استكبار :

ـــ انى قادر على ما أريد .

ـــ كل ما تقدر عليه هو الاسترسال فى التفكير ، والاسراف فى الحزن .

ـــ انى قادر على أن أصنع نفسى بيدى .

ـــ هيهات ، اجمع مواهبك ، واحشد قواك ، وافعل كل ما فى طاقتك لتغيير ما كان .

ـــ سأغير ما سيكون ، سأخلق مستقبلى بعزمى ، وأصنعه كيف أشاء .

ـــ والله لن تجنى الا ما وعدت به فى السماء .

فقال فى تبرم :

ـــ ولن أومن بهذا حتى أعـــرج الى الســـماء لأرى منبع الأرزاق .

* * *

ودخل فراشه ، وأسلم جنبه للرقاد ، وأسبل عينيه ، ولكن النوم جافاه ، كان ذهنه يفكر فيما جرى بينه وبين أمه من حوار ، وفكر فى الأرزاق التى تهبط من السماء ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة هازئة ، وان حسد فى قرارة نفسه أمه على ايمانها الذى يمدها بالراحة والاطمئنان ، وظل فريسة لأفكاره ، حتى غلبه النوم فنام .

راح فى سبات ، فرأى نفسه فيما يرى النائم يسير فى السماء ، يتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، واذا بملك كريم لاح لعينيه ، وقال فى رقة :

ــ عم تبحث هنا ؟

ــ عن رزقى .

فأشار الملك بأصبعه بعيدا وقال :

ــ هناك فى وادى الأرزاق .

فانطلق يهرول ، ثم أخذ يعدو حتى أشرف على واد هائل ، لا يبلغ البصر مداه ، تفجرت فيه الأرزاق كينابيع الماء ، وكانت الينابيع تتفاوت فى قوة اندفاعها ، فبينما بعضها ينبثق فى غزارة ، اذا بعضها الآخر تسيل منه الأرزاق كرذاذ الماء .

ووقف ينظر خافق القلب ، مكروب الأنفاس ، وقد لاح فى وجهه الدهش ، وبقى فى مكانه لا يريم قلقا مضطربا ، حتى اذا هدأ روعه ، انحدر كالعاصفة الى وادى الأرزاق ، وقد أرهفت منه الحواس ، وجعل يجوس خلال الينابيع المتفجرة ، ينقب عن رزقه فى جنون .

جعل يعدو هنا وهناك ، يبحث وينقب ، وقد علاه البهر . وأخيرا وقف أمام ينبوع أوحى اليه أنه رزقه ، فنظر اليه فى تبرم وضيق ، كان الرزق يتدفق منه فى اعتدال ، فما كان كالأرزاق المنبثقة فى قوة وغزارة ، وما كان كالأرزاق الواهنة التى تسيل قطرات .

ومد بصره الى الينابيع الفوارة ، وظل يديم النظر اليها . ولم يعز الينابيع الضحلة أدنى التفات ، فأحس كأن عقدة عقدت فى صدره فضيقته ، وأبخرة الحسد تنتشر فى جوفه فتضنيه ، فراح صدره يرتفع وينخفض فى حنق شديد .

وتمنى أن يجد فى هذا الوادى الهائل العجيب قدوما ومسمارا يوسع بهما الثقب الذى يتدفق منه رزقه ، وما ان خطرت هذه الأمنية على باله ، حتى ألفى القدوم والمسمار بين يديه ، فأثلج صدره ، وهرع الى رزقه نشوان ، فما هى الا دقات حتى يتفجر رزقه تفجرا يفوق كل ما فى وادى الأرزاق .

ووضع المسمار فى ثقب الينبوع ، ثم طفق يدق عليه بالقدوم فى قوة وعزم ، وتفصد منه العرق ، ونال منه التعب ، ولكنه لم يلتفت الى تعبه ، فما هى الا دقات أخرى حتى ينتهى كل شىء . واستجمع قواه ، ودق على المسمار دقة هائلة ، فكسر المسمار فى الثقب ، فجعل يحاول جاهدا أن يخرج المسمار المكسور وهو مرعوب ، وأخفقت محاولاته ، فأحس خوفا شديدا ، وقلقا يلفه ، ورهبة تستولى عليه ، فقد حبس رزقه بيده ، ولم يعد له ينبوع فى وادى الأرزاق ، وخطر له أن الرزق لا ينحبس الا اذا مات صاحبه ، فأقنع نفسه أنه قد مات .

وهب من نومه مذعورا ، وقد سرت فى بدنه رعـدة : ودب الرعب فى جسمه دبيب النمل ، وجلس فى فراشه يرتجف من الخوف ، يحس جفافا فى حلقه ، وراح يمرر يده على وجهه ، ثم يتحسس جسمه ، ليقنع نفسه أنه ما زال حيا يرزق ، وأخذت رهبته تنقشع رويدا رويدا ، حتى اذا ما اطمأن قليلا ، راح يفكر فى حلمه ، فعادت اليه رهبته ، وفكر فيما يفعله لو حبس رزقه عنه ، فربا خوفه ، وزاد اضطرابه ، ونهض من فراشه يجوس خلال داره ليهدىء قلبه الثائر المرعوب .

راح يتلفت حوله فرأى بديع الرياش الذى أثث به داره ، ولمح مقعدا وثيرا ، فاتجه اليه ، وغاص فيه ، وراح خوفه ينقشع ، حتى اذا هدأت نفسه ، وزال خوفه ، فكر فى أمره ، فشعر لأول مرة بأنه سعيد ، وأنه فى نعيم .

الفهرست

مؤلفـــــات

عبد الحميد جوده السحار

الطبعة الاولى

احمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
ابو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة اقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن ابى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة اقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
ابناء أبى بكر الصديق		اكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد) ترجمه مع محمد محمد فرج		يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
اهل بيت النبى		مايو سنة ١٩٤٨
اميرة قرطبة	قصــة	ســنة ١٩٤٩
النقاب الازرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
محمد رسول الله (مترجمة)		١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة اقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
ام العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩

الطبعة الأولى

القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	اكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة اقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله واسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	اكتوبر سنة ١٩٧٢
هذه حياتى	(قصة حياة المؤلف)	فبراير سنة ١٩٧٤
ذكريات سينمائية		ابريل سنة ١٩٧٤
كشك الموسيقى		١٩٨٣
خفقات قلب		١٩٨٣
صور وذكريات		١٩٨٣
الاسراء والمعراج		١٩٨٣
عدو البشر (سيناريو وحوار)		ابريل سنة ١٩٨٤
النمر (سيناريو وحوار)		ابريل سنة ١٩٨٤
الله أكبر (سيناريو وحوار)		ابريل سنة ١٩٨٤
أبطال الجزيرة الخضراء		١٩٨٥
ثلاثة رجال فى حياتها		١٩٨٥
مسجد الرسول		١٩٨٥
فات الميعاد (سيناريو وحوار)		ابريل سنة ١٩٨٦
آدم الى الأبد (سيناريو وحوار)		ابريل سنة ١٩٨٦

القصص الديني

(للأطفــــال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٤ جزءا
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٣٠ جزءا
العرب فى أوروبا	فى ٢٤ جزءا

محمد رسول الله والذين معه

في عشرين جزءا

١ ـ ابراهيم ابو الأنبياء	اكتوبر ١٩٦٥
٢ ـ هاجر المصرية ام العرب	مارس ١٩٦٦
٣ ـ بنو اسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤ ـ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥ ـ قريش	مايو ١٩٦٧
٦ ـ مولد الرسول	يولية ١٩٦٧
٧ ـ اليتيم	اكتوبر ١٩٦٧
٨ ـ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩ ـ دعوة ابراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠ ـ عام الحزن	مارس ١٩٦٨
١١ ـ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢ ـ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣ ـ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤ ـ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥ ـ صلح الحديبية	يونية ١٩٦٩
١٦ ـ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧ ـ غزوة تبوك	نوفمبر ١٩٧٠
١٨ ـ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩ ـ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠ ـ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ٣٠٠ قرش